التفسير والبيان في معنى لا جرم في القرآن

إعداد الدكتور

دخيل بن عبد الله الدخيل

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده المصطفين، وعلى المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أنزل عليه القرآن الكريم، وأعجز به العرب الأقحاح الفصحاء حتى دانوا بعلو كعبه والعجز عن معارضته، وكان من أعظم جوانب الإعجاز فيه، الجانب البلاغي في النظم والتركيب والإفراد، مع جريه على سنن العرب وأساليبهم، ومن الأساليب المستخدمة في ذلك؛ سياق "لا جرم" في القرآن، حيث استخدمت هذه اللفظ وجاءت في خمسة مواضع من كتاب الله ﷻ، لذا كان حرياً دراستها، ومعرفة إعرابها، وخصائص بنائها، ونظمها، ودقائق أسرار تكرارها، ونكت السياق الذي ذكرت فيه، وهذا من أقوى الدوافع لدراستها.

ولم تقف هذه الدراسة على كل آية ذكرت فيها لفظة "لا جرم"؛ وإنما تناولت السياق المرتبط بها، وقد يتجاوز ذلك إلى ما يجلي نكتة أو فائدة أو مقارنة ونحو ذلك، مما لا غنى عن توضيحه في الدراسة، وعليه فالدراسة لهذا الموضوع تحليلية،والمنهج العام فيها تحليلي استقرائي.

ويمكن تلخيص منهج الدراسة الذي اتبعته في الخطوات الآتية:

أولا:عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وحرصت على كتابة الآية بخط المصحف الشريف تجنبا لأي خطأ قد يطرأ على كتابتها.

ثانيا: خرجت الأحاديث النبوية من مظانها الأصيلة واتبعت طريقة المحدثين في التخريج بذكر الكتاب والباب ورقم الحديث، فإن كان في الصحيحين خرجته منهما، وإن كان في أحدهما خرجته منه،وإن لم يكن فيهما تتبعته في مظانه.

ثالثا: نسبت الأقوال إلى قائليها فإن من بركة العلم نسبته إلى أصحابه.

رابعا: خرجت الأبيات الشعرية من دواوينها، للتأكد من نسبتها لقائليها.

خامسا:بيّنت معانى الألفاظ الغريبة في الحاشية من كتب أهل اللغة .

سادسا:توخيت سهولة العبارة مجتنبا التكلف فيها .

هذا، وقد قسمت البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس، ذكرت في **المقدمة سبب اختياري للموضوع، والمنهج المتبع في دراسته، وخطة البحث.**

المبحث الأول: اصطلاحات لا جرم في اللغة والقرآن، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى جرم في اللغة.

المطلب الثاني : الخلاف النحوي في لفظة لا جرم.

المطلب الثالث: دلالة لا جرم على القسم.

المطلب الرابع : اللغات الواردة في لا جرم.

المبحث الثاني: أسلوب القرآن الكريم في ورود لا جرم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ورود "الجرم" وما من مادته.

المطلب الثاني: ورود لا جرم في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: لا جرم وأسرار تكرارها في القرآن الكريم.

والخاتمة بيّنت فيها أهم النتائج التي خلصت إليها، وذيلت البحث بفهرس لأهم المراجع التي اعتمدت عليها، ثم فهرس للموضوعات.

هذا وإني أسال الله تعالى وهو أكرم من سئل، وأوسع من أعطى، أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه سبحانه، وأن يرزقنا فهم كتابه والعمل به،وأن يتجاوز عن سهونا وتقصيرنا.

والله ولي التوفيق

المبحث الأول: اصطلاحات لا جرم في اللغة والقرآن.

المطلب الأول: معنى لا جرم في اللغة.

جرم في اللغة:

الجيم والراء والميم أصلٌ واحد يرجع إليه الفروع.

فالجَرْمُ القطع. ويقال لِصِرام النَّخل الجِرَام. وقد جاء زمن الجِرام. وجَرَمْتُ صُوف الشاة وأخذته.والجُرَامةُ: ما سقط من التمر إذا جُرِم. ويقال الجُرامة ما التُقِط من كَرَبِهِ بعد ما يُصْرَمُ. ويقال سنة مجَرَّمَةٌ أي تامَّة، كأنها تصرَّمَت عن تمام. وهو من تجرَّم الليلُ ذَهَب. والجَرام والجَريم : التَّمْر اليابس. فهذا كلُّه متفق لفظاً ومعنى وقياساً.

ومما يُردُّ إليه قولهم جَرَم، أي كَسَب؛ لأن الذي يَحُوزُه فكأنه اقتطَعَه، وفلانٌ جَرِيمةُ أهله، أي كاسِبُهم. ومنه قول أبي خراش الهذلي:

جَرِيمَةَ ناهضٍ في رأس نيْقٍ تَرَى لعظامِ ما جَمَعتْ صلِيباً[(١)]

يصف عقاباً، يقول: هي كاسِبَةُ ناهض. أراد فرخَها.

والجُرْم والجريمة: الذَّنْب وهو من الأول؛ لأنه كَسْبٌ، والكَسْب اقتطاع، وقالوا في قولهم (لا جَرَم) : هو من قولهم جَرَمْتُ أي كَسَبت، وأنشدوا:

ولقد طعنتُ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةَ بعدَها أن يَغْضَبوا[(٢)]

والجِرْمُ بالكسر: الجسم. قال ابن فارس: لأن له قَدْراً وتَقْطيعاً.

والجِرْمُ: الصوت، من قولهم : إنه لحسن الجِرْم، والأصح في معناه : حَسَنُ خروج الصوت من الجِرْم[(٣)]. و الجِرْم: اللون يقال: جرم لونه إذا صفا[(٤)].

(١) انظر أشعار الهذليين: ١٢٠٥/٣، والاقتضاب:٣١٧، وجمهرة اللغة:٨٤/٢، وأدب الكاتب:٦٦، وبلا نسبة في مقاييس اللغة:٤٤٦/١.

(٢) البيت لأبي زياد بن أسماء بن الضربة أو عطية بن عفيف، يرثي كرز ابن عامر، وكان طعن حصين بن حذيفة الفزاري طعنة مميتة يوم بني عقيل وهو يوم الحاجر، وقد ولي حصينة على بنيه عند موته ابنه عيينة، وهو لقب لحذيفة لجحوظ عينيه. انظر أمالي المرتضى:١٦٩/٤، وهو في كتاب سيبويه:١٣٨/٣، والمجاز لأبي عبيدة:١٤٧/١، ومقاييس اللغة:٤٤٦/١، ولسان العرب: مادة (جرم) .

(٣) تصحيح هذا المعنى لابن فارس في مقاييس اللغة (٤٤٦/١) ونسبه لأبي بكر بن دريد.

(٤) انظر العين مادة (جرم):١١٨/٦-١١٩، ومقاييس اللغة: ٤٤٥/١-٤٤٦، ولسان العرب مادة (جرم): ٩٠/١٢.

المطلب الثاني : الخلاف النحوي في لفظة لا جرم.

في هذه اللفظة خلافٌ بين النحويين، ويتلخص ذلك في خمسة أوجه:

أحدها: وهو مذهب الخليل وسيبويه وجماهير الناس، أنهما رُكِّبَتَا من "لا" النافية و"جرم"، وبُنِيتَا على تركيبهما تركيبَ خمسةَ عشرَ، وصار معناهما معنى فِعْلٍ وهو "حقَّ" فعلى هذا يرتفع ما بعدهما بالفاعلية، فقوله تعالى:﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ النحل: ٦٢، أي: حَقَّ وثَبَتَ كونُ النار لهم، أو استقرارها لهم[(١)].

الثاني: أنَّ "لا جرم" بمنزلة لا رجل، في كون "لا" نافيةً للجنس، و"جَرَمَ" اسمُها مبنيٌّ معها على الفتح وهي واسمُها في محلِّ رفع بالابتداء وما بعدهما خبرُ "لا" النافية، وصار معناها: لا محالة ولا بُدَّ وهو قول الفراء[(٢)].

الثالث: كالذي قبله؛ إلا أن "أنَّ" وما بعدها في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ بعد حذف الجار، إذ التقدير: لا محالةَ في أنهم في الآخرة، أي: في خسرانهم.

الرابع: أن "لا" نافية لكلامٍ متقدم تكلَّم به الكفرة، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: "لا"، كما تَرُدُّ "لا" هذه قبل القسم في قوله : ﴿ لَآ أُقۡسِمُ ﴾، وقوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ النساء: ٦٥، ثم أتى بعدها بجملةٍ فعليةٍ وهي "جرم أنَّ لهم كذا". وجَرَمَ فعلٌ ماضٍ معناه كسب، وفاعله مستتر يعود على فعلهم المدلولِ عليه بسياقِ الكلام، و"أنَّ" وما في حيِّزها في موضع المفعول به؛ لأن "جَرَم" يتعدى إذ هو بمعنى كَسَبَ. فتقدير الآية: كَسَبَهم –فِعْلُهم أو قولُهم– خسرانَهم، وهذا قول أبي إسحاق الزجاج، وعلى هذا الوقف على قوله "لا" ثم يُبتدأ بـ"جَرَمَ" بخلاف ما تقدَّم[(٣)].

الخامس: أنَّ معناها لا صَدَّ ولا مَنْعَ، وتكون "جَرَمَ" بمعنى القطع، تقول: جَرَمْتُ، أي: قطعت، فيكون "جرم" اسمَ "لا" مبنيٌّ معها على الفتح كما تقدم، وخبرها "أنَّ" وما في حيِّزها، أو على حَذْف حرف الجر، أي: لا منع من خسرانهم، وهو قول الكسائي[(٤)].[(٥)]

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه:١٣٨/٣

(٢) انظر معاني القرآن للفراء:٨/٢-٩

(٣) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج:٤٦/٣

(٤) انظر إعراب القرآن للنحاس:٥٤٨/١، والهداية إلى بلوغ النهاية:٣٣٧٢/٥

(٥) انظر الأقوال في: الدر المصون:٣٠٣/٦-٣٠٤، إعراب القرآن للنحاس:٥٤٨/١، ومشكل إعراب القرآن:٢٣٠، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي:٣٣٧٢/٥-٣٣٧٣، وإملاء ما من به الرحمن للعكبري :٣٦/٢

وأخذت الجريمة من قطع الأمر السائد في النظام.ومثل هذه العقوبة ليست جريمة؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة، بل هي مَنْع للجريمة[١].

المطلب الثالث: دلالة لا جرم على القسم.

من العرض السابق لخلاف النحويين في "لا جرم" وفي تركيب "لا جرم" من "لا" النافية للجنس أو الزائدة للتوكيد[٢]، وما اختاره الجمهور لمعنى "لا جرم" بأنه: حقا، وكذا الجملة التابعة لها والمؤكدة بـ"لا جرم" وهي "إن ومدخولاها"، يدل على أن هذا الأسلوب أسلوب توكيد، وإن قال بعضهم إنه يغني عن لفظ القسم، قال ابن مالك:

و "جير" أو "جير" ينوب عن قسم كذا ينوب عنه –أيضا– "لا جرم".

قال المرادي: وأما وجه الكسر –إن– بعد لا جرم فهو ما حكاه الفراء. قال: العرب تقول: لا جرم لآتينك، ولا جرم لقد أحسنت. فتراها بمنزلة اليمين. قال ابن مالك: ولإجرائها مجرى اليمين حكي عن العرب كسر إن بعدها. قلت: والظاهر أن إن إذا كسرت بعدها فهي جواب قسم، مقدر بعد لا جرم. وهو ظاهر قول ابن مالك : وربما أغنت لا جرم عن لفظ القسم، مراداً[٣]. ويؤيد ذلك أن بعض العرب صرح بالقسم بعدها، فقال: لا جرم، والله لافارقتك[٤]. قال مقاتل بن سليمان: "لاجرم" قسماً[٥].

وقال الفيروز آبادي بعد ذكره اللغات الواردة في "لا جرم": أي : لا بد أو حقا أو لا محالة أو هذا أصله ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام فيقال : لا جرم لآتينك [٦].

وقال أبو حيان:" وقرأ عيسى الثقفي إن بكسر الهمزة[٧] على الاستئناف والقطع مما قبله[٨].

وقال بعض أصحابنا: وقد يغني لا جرم عن لفظ القسم، تقول: لا جرم لآتينك،

(١) تفسير الشعراوي :١٤٨٢
(٢) انظر الأصول في النحو للسراج:٢٧٩/١
(٣) شرح الكافية الشافية:٨٨١/٢
(٤) الجنى الداني في حروف المعاني للداني:٧٠، وانظر أوضح المسالك لابن هشام:٣٤٤/١
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢١٧/٢
(٦) القاموس المحيط: مادة (جرم) ، ١٤٠٥/١، ونقله الزبيدي في تاج العروس:٣٩٠/٣١
(٧) انظر البحر المحيط:٥١٩/٦، والشواذ:٧٢
(٨) في قوله تعالى : (لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) سورة النحل ٢٣

فعلى هذا يكون لقوله: "إن الله" بكسر الهمزة تعلق بلا جرم، ولا يكون استئنافاً[1].
وتعقبه السمين الحلبي فقال: والعامة على فتح الهمزة من "أن الله" وكَسَرَها عيسى الثقفي، وفيها وجهان، أظهرهما: الاستئناف.
والثاني: جَرَيان "لا جَرَم" مَجْرَى القسم فَتُتَلَقَّى بما يُتَلَقَّى به.
وقال بعض العرب: "لا جرم والله لا فارقتُك" وهذا عندي يُضعف كونَها للقسم لتصريحه بالقسم بعدها، وإن كان الشيخ[2]أتى بذلك مُقَوِّيَاً لجريانها مَجرى القسم[3].
وقد جاءت لفظة "لا جرم" بنفس المعاني الدالة على القسم والتحقيق فيما روي عن الصحابة والسلف وكذا التراث الأدبي، فمن ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد بسنده عن يَعْلَى بن سِيَابَةَ قال كنت مع النبي ﷺ في مَسِيرٍ له فَأَرَادَ أن يقضي حَاجَةً فَأَمَرَ وَذْيَتَيْنِ[4] فَانْضَمَّتْ إِحْدَاهُمَا إلى الأُخْرَى ثُمَّ أَمَرَهُمَا فَرَجَعَتَا إلى مَنَابِتِهِمَا وَجَاءَ بَعِيرٌ فَضَرَبَ بجرانه[5] إلى الأَرْضِ ثُمَّ جَرْجَرَ حتى ابْتَلَّ ما حَوْلَهُ فقال النبي ﷺ أَتَدْرُونَ ما يقول الْبَعِيرُ؟ إنه يَزْعُمُ إنَّ صَاحِبَهُ يُرِيدُ نَحْرَهُ، فَبَعَثَ إليه النبي ﷺ فقال أَوَاهِبُهُ أنت لي؟ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ مالي مَالٌ أَحَبُّ إلي منه، قال: اسْتَوْصِ بِهِ مَعْرُوفاً، فقال: لاَ جَرَمَ لاَ أُكْرِمُ مَالاً لِي كَرَامَتُهُ يا رَسُولَ اللَّهِ، وَأُتَى على قَبْرٍ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ فقال: إنه يُعَذَّبُ في غَيْرِ كَبِيرٍ فَأَمَرَ بِجَرِيدَةٍ فَوُضِعَتْ على قَبْرِهِ فقال: عَسَى أَنْ يُخَفَّفَ عنه ما دَامَتْ رَطْبَةً[6].
وأيضا عن أَنَسِ بن مَالِكٍ أن قَوْماً ذَكَرُوا عِنْدَ عُبَيْدِ اللَّهِ بن زِيَادٍ الْحَوْضَ فَأَنْكَرَهُ وقال: ما الْحَوْضُ؟ فَبَلَغَ ذلك أَنَسَ بن مَالِكٍ، فقال: لاَ جَرَمَ والله لأُفْعَلَنَّ، فأتاه فقال: ذَكَرْتُمْ الْحَوْضَ فقال عُبَيْدُ اللَّهِ هل سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُهُ؟ فقال: نعم، يقول أَكْثَرَ من كَذَا وَكَذَا مَرَّةً إن ما بين طَرَفَيْهِ كما بين آيلة إلى مَكَّةَ، أو بين صَنْعَاءَ وَمَكَّةَ، وإن آنِيَتَهُ أَكْثَرُ من نُجُومِ السَّمَاءِ، قال: حَسَنٌ، وإن آنِيَتَهُ لأَكْثَرُ من عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ[7].
وفي الحديث المتفق عليه بسندهما عن عبد اللَّهِ قال لَمَّا كان يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رسول اللَّهِ ﷺ نَاسًا في الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بن حَابِسٍ مِائَةً من الْإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك وَأَعْطَى أُنَاسًا من أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ في الْقِسْمَةِ، فقال رَجُلٌ: والله إِنَّ هذه

(١) البحر المحيط:٥١٩/٦
(٢) هو أبو حيان الأندلسي كما في البحر المحيط: ٥١٩/٦
(٣) الدر المصون:٢٠٦/٧
(٤)وديتين : هى صغار النخل ؛ الواحدة وَدِيَّة . الفائق: ٤ / ٥١
(٥) بجرانه : أي قرَّ قَرارُه واسْتقَام كما أن البعير إذا برَك واسْتَراح مدّ عُنُقَه على الأرض . النهاية في غريب الحديث: ١ / ٢٦٣
(٦) مسند الإمام أحمد:١٧٢/٤
(٧) المصدر السابق:٢٣٠/٣

لَقِسْمَةٌ ما عُدِلَ فيها وما أُرِيدَ فيها وَجْهُ اللَّهِ، قال فقلت: والله لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قال، قال: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حتى كان كَالصِّرْفِ ثُمَّ قال: فَمَنْ يَعْدِلُ إن لم يَعْدِلْ الله وَرَسُولُهُ؟ قال ثُمَّ قال: يَرْحَمُ الله مُوسَى قد أُوذِيَ بِأَكْثَرَ من هذا فَصَبَرَ. قال قلت: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إليه بَعْدَهَا حَدِيثًا[1].

وفي مسند أبي يعلى عن عبد الله بن مسعود قال أتيت حمص فقال لي نفر منهم يا أبا عبد الرحمن اقرأ علينا فقرأت سورة يوسف فقال لي رجل ما هكذا أنزلت فقلت له ويحك والله لقد قرأتها على رسول الله ﷺ فقال أحسنت قال فبينا أنا أراده بالكلام إذ وجدت منه ريح الخمر فقلت له أتشرب الرجس وتكذب بالقرآن لا جرم لا تبرح حتى أجلدك حدا فجلدته حدا[2].

وفي مسند أحمد وصحيح ابن حبان بسندهما قَالَ أَبُو مُوسَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ لَوْ أَنَّ جُنُبًا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا لَمْ يُصَلِّ، قَالَ عَبْدُاللَّهِ: لا، قَالَ أَبُو مُوسَى: أَمَا تَذْكُرُ حِينَ قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلا تَتَّقِي اللَّهَ، أَلا تَذْكُرُ حِينَ بَعَثَنِي وَإِيَّاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الإِبِلِ فَأَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ فَتَمَعَّكْتُ فِي التُّرَابِ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ وَمَسَحَ وَجْهَهُ وَكَفِيهِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لا جَرَمَ مَا رَأَيْتُ عُمَرَ قَنَعَ بِذَلِكَ، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَكَيْفَ بِهَذِهِ الآيَةِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ،فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّا لَوْ رَخَّصْنَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ يُوشِكُ إِذَا بَرَدَ عَلَى جِلْدِ أَحَدِهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمَ، قَالَ الأَعْمَشُ: فَقُلْتُ لِشَقِيقٍ أَمَا كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ غَيْرُ ذَلِكَ؟ قَالَ: لا[3].

وفي مصنف بن أبي شيبة عن عبد السَّلاَمِ رَجُلٌ من بَنِي حَيَّةَ قال خَالاَ عَلِيٌّ بِالزُّبَيْرِ يوم الْجَمَلِ فقال أَنْشُدُك بِاللهِ كَيْفَ سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول وَأَنْتَ لاوى يَدِي في سَقِيفَةِ بَنِي فُلاَنٍ لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ له ثُمَّ لَيُنْصَرَنَّ عَلَيْك قال قد سَمِعْتَ لاَ جَرَمَ لاَ أُقَاتِلُك[4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتلاً فله سلبه من غير، ح(٣١٥٠) (١٧٣/٨) ، ومسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الأسلام وتصبر من قوى إيمان، ح(٢٤٩٤) ، ١٠٩/٣.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ح(٥٠٦٨)، ٤٨٧/٨

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(ح١٨٣٢٩) (٢٧٢/٣٠) وابن حبان في صحيحه (ح١٣٠٥)، ١٣٠/٤

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ح(٣٧٨٢٧)، ٥٤٥/٧

ومما جاء في إرث الأدباء نثرا وشعرا ويدل على أن أسلوب لا جرم يزيد في تأكيد الكلام ما ذكره الثعالبي قال: وحدثني هذا أبو الفضل قال: قلت يوما لابن حماد في كلام جرى بيني وبينه أنت بحر وأنا نهر، فقال: لا جرم أنت عذب وأنا ملح(١).

ومن ذلك ما جاء في هجاء بشر بن أبي خازم وقد هجا أوساً نظير إبل، فأغار أوس عليها واكتسحها وطلبه فجعل لا يستجير حيا من أحياء العرب إلا قالوا له قد أجرناك من الجن والإنس إلا من أوس فكان في هجائه إياه ذكر أمه فلم يلبث إلا يسيرا حتى أتى به أسيرا فدخل أوس إلى أمه واستشارها في أمره فقالت أرى أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه وأفعل أنا مثل ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه فأخبره بما قالت فقال لا جرم والله لا

مدحت أحدا حتى أموت غيرك ففيه يقول:

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي في من قضاها
وما وطئ الثرى مثل ابن سعد ولا لبس النعال ولا احتذاها.(٢)

ومن الشعر في بيان استعمال لفظة لا جرم الدالة على معنى حقاً وتوثيق الكلام ما قال ابن هانئ الأندلسي :

و كان إذا ما قرى بكرةً تَفَرّدَ بالجُودِ فيما زَعَم
و أنتَ تجودُ بمثلِ البكارِ من التّبرِ في مثلها منْ أدم
إذا عربٌ لم تكنْ فِي الصّميمِ ممن نمتك فتلك العجم
فلوْ نُسِبَتْ يَمَنٌ كُلّها إليكَ لقنا لها لا جرم
بحَيْثُ الأكُفُّ طِوالٌ إلى مآربها والعرانينُ شمّ
إنك من مَعشَرٍ طِفْلُهُمْ يُتوَّجُ قبلَ بلوغِ الحُلُم
و يسمو إلى المجدِ قبلَ الفطامِ فكيْفَ يَكونُ إذا ما فُطِم(٣)

نلحظ أن تركيبها هنا يدل على أنه لا تصلح أن تنفك عنه "لا" وتكون رداً لما قبلها كما رأينا في بعض الآراء النحوية السابقة؛ بل هي قول واحد وتركيب متمازج يثمر معنى واحداً يناسب سياق المدح بالكرم وعموم الأثر وعلو المكانة وارتفاع المنزلة بين العرب والعجم.

(١) يتيمة الدهر :٢٢
(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ١١٨، والتذكرة لابن حمدون:٦٤/٢، وخزانة الأدب:٤٠٥/٤
(٣) ديوان ابن هانئ الأندلسي:٣٢٣/١

فمعنى "حقاً" هنا يفرض نفسه، أي لا جرم أنه يستحق ذلك، والبيت بعده يعضد المعنى ويشد أزره لأنه تعليل له.

بحَيْثُ الأكُفُّ طِوالٌ إلى مآربها والعرانينُ شمّ

وهذا يدل أيضاً على تساوق العبارات وتصاقب التعبير بـ"لا جرم" مع معانيها ففيها معنى الكسب، أي هذه المكانة اكتسبها لنفسه واستحقها من خلال عمله ولذا لا يصلح مكانها حقاً، ولا قطعاً ولا قسماً وإن كانت بمعانيها؛ وإنما "لا جرم" تضم ذلك بين جنبات حروفها وتكسب المعنى قوة لا تحققها مُرَادِفاتُها(١).

وقال بديع الزمان الهمذاني:

يا آل عصم أنتم أولو العصم لم توسموا إلا بنيران الكرم
لا ينزع الله سرابيل النعم عنكم فلا تخطوا بها دون الأمم
طابت مبانيكم وطبتم لا جرم يا سادة السيف وأرباب القلم
تهمي سجاياكم بعقيان ودم أنتم فصاح ما خلا في لا ولم(٢).

ففي هذه الأبيات بهذا السياق للفظة "لا جرم" من معنى الاستحقاق والكسب ما هو ظاهر في الثناء والدعاء لا يقوم به لفظ غيرها.

وبعد وإن اختلفوا في كون لفظة "لا جرم" قد تغني عن القسم أو أن يقدر قسم بعد لا جرم، كل ذلك يفيد معنى القسم، ودلالتها على التوكيد قوية، حيث أغنى هذا التركيب عن القسم وناب عنه، وهو ما سوف يتضح في قسم الدراسة التطبيقية حيث استخدم هذا الأسلوب في سياق الرد أو التأكيد لأمرٍ متنازع فيه، ومن ثم جاء بعدها حرف التوكيد في جميع الشواهد القرآنية.

ومن تقرير ذلك ما قاله أبو علي القالي في أماليه:

فإن قيل : كيف تكون "لا جرم" قَسَمًا وليس فيه مُعَظَّمٌ يُقسم به، قيل : إن الإقسام عند العرب على ضربين:

أحدهما: يقع الإقسام فيه بمن يجل قدره وتعلو منزلته، وهو الذي تسبق إليه الأفهام، ويستعمل في أكثر الكلام حين يقول القائل: وإلهي لأفعلن ذلك، وكقيل: العرب في الجاهلية: والرحم لأقصدنك، والعشيرة لأقضين حقك، وهو مكروه عند أهل العلم؛ لأنه لا ينبغي أن يحلف حالف بغير الله تبارك وتعالى.

والضرب الثاني: أن يعتقد الحالف اليمين والحلف بالعظيم عندهم الكبير في نفسه، ثم يأتي ببدل منه فيقول: حلفا صادقا لأزورنك، فجعل حلفا صادقا مكتفي به عن

(١) مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد (٢٣)، أسلوب لا جرم:٩٥٩
(٢) ديوان بديع الزمان الهمذاني:٢٠٩/١، ويتيمة الدهر:٣٤١/٤

المحلوف به عند وضوح المعنى، ولو أظهر اليمين ولم يبن على الاكتفاء والاختصار لقال: أحلف بالله حلفا صادقا، ولهذه العلة أقسموا بالحق فقالوا: حقا لأفعلن ذلك؛ إذ جعلوه عوضا من اليمين، وحملوا على الحق ألفاظا معناها فيها كمعناه، فقالوا: كلا لأطيعنك، يعنون حقا، وقالت الفصحاء: جير لأفعلن، وعوض لأجلسن يعنون بتينك اللفظتين: حقا، فاحتملت لا جرم من معنى الإقسام مثل الذي احتملت كلا وجير وعوض[1].

المطلب الرابع : اللغات الواردة في لا جرم:

حكي في هذه اللفظة عدة لغات: يقال: لا جَرَمَ أنك محسن، لغة أهل الحجاز، لا جِرَمَ بكسر الجيم، ولا جُرَم بضمِّها، ولا جَرَ بحذف الميم، وهي لبني فزارة، حذفوا الميم لكثرة استعمالها في الكلام[2]، كما قالوا: "سَو ترى" يريدون: سوف[3]. ولا ذا جَرَم[4]، وهي لبني عامر، ولا إنَّ ذا جَرَم، ولا ذو جَرَم، ولا عن ذا جَرَم[5]، ولا أنْ جَرَم، ولا عن جَرَم[6]، ولا ذا جَرَ، ولا جَرُم أنَّ على وزن لا كَرُم بضم الراء، ولا جَرَ.[7]

(١) الأمالي في لغة العرب:٣/٢١٦-٢١٧
(٢) انظر معاني القرآن للفراء:٢/٩
(٣) انظر معاني القرآن للفراء:٢/٩، والزاهر في معاني كلام الناس:١/٣٤٠، وإعراب القرآن للنحاس:١/٥٤٩
(٤) انظر الزاهر في معاني كلام الناس:١/٣٤١، وإعراب القرآن للنحاس:١/٥٤٩
(٥) والذي يظهر أنها: لا إن ذا جرم، وإنما أبدلت الهمزة عيناً على لغة.
(٦) أبدلت الهمزة عيناً على لغة.
(٧) انظر هذه الغات: معاني القرآن للفراء:٢/٩، والزاهر في معاني كلام الناس:١/٣٤٠، وإعراب القرآن للنحاس:١/٥٤٨، والهداية إلى بلوغ النهاية:٦/٣٣٧٢، والبحر المحيط:٦/١٣٨، والدر المصون:٦/٣٠٤-٣٠٥

المبحث الثاني: أسلوب القرآن الكريم في ورود لا جرم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ورود "الجرم" وما من مادته.

ورد لفظ "جَرَم" وما تصرف من مادته في القرآن الكريم على ستة أوجه:

الأول: الجُرْم بمعنى الشرك، والمجرم بمعنى المشرك قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ المعارج: ١١

الثاني: الجُرم بمعنى إنكار القدر، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ القمر: ٤٧

الثالث: بمعنى الفاحشة، قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأعراف: ٨٤ ، أي المشتغلين بها.

الرابع: بمعنى حمل العداوة، قوله تعالى ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾ هود: ٨٩، أي لا يحملنكم

خلافي، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾المائدة: ٨

الخامس: لا جرم بمعنى حقاً ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢

السادس: بمعنى الإثم والذنب والزَّلَّة، قوله تعالى : ﴿ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ هود: ٣٥ أي فعل إثمي.(١)

المطلب الثاني: ورود لا جرم في القرآن الكريم.

وردت لفظة "لا جرم" في القرآن الكريم في خمسة مواضع :

الموضع الأول: قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢١ - ٢٢

استخدم القرآن الكريم أسلوب "لا جرم" في هذه السورة العظيمة استخداماً قل نظيره، وفي مثل هذه الأساليب ممايزة وإعجاز للعرب أن يأتوا بمثله، وإذا أنعمنا النظر في هذه السورة؛ في افتتاحها وصدرها وكذا تضاعيفها نجدها دائرة على ما أشارت إليه الآية الأولى من الإحكام والتفصيل، وأن القرآن قائم على ذلك، فآياته آخذة بزمام بعضها البعض، وفي هذه السورة إحكام وتفريع وتفصيل وتدرج في تأكيد ما للمكذبين بهذا القرآن وافترائهم على الله الكذب بعد بيان عجزهم عن أن يأتوا بمثله وأنهم يستحقون الوعيد الشديد في الآخرة، ثم يُفَصِّل ويذكر شيئاً من صفاتهم وعنادهم تفريعاً على ما أحكم من الآيات، حتى إذا تجلى عنادهم وإصرارهم ومكابرتهم أكد ذلك بالخاتمة والنتيجة المحتومة المحققة الثابته، وأن ما قضي عليهم به واستحقوه؛ إنما هو

(١) انظر الوجوه والنظائر للدامغاني:٢٢٩، وبصائر ذوي التمييز:٣٥٦/٢

من كسبهم وجنايتهم على أنفسهم، فجاءت "لا جرم" جامعة بين هذه المعاني التي لا يستقيم غيرها في هذا الموضع.

وهو ما سيتضح من تفسير آيات سورة هود:

افتتح الله ﷻ السورة بقوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود: ١ ، فبيَّن أنَّ القرآن الكريم أُنزل مُحكما ومُفَصَّلا، فالإحكام :نظم الآيات وتأليف كلماتها مترتبة المعاني متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضية العقل، لا يعتريها

اختلال من جهة اللفظ والمعنى[1].وبهذا المعنى تنبئ المقابلة بقوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

والتفصِّيل: توضيح وبيان وإكمال لما فيه من الإجمال.

وقد حدَّد مصدر الكتاب بقوله ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ، صفة لكتاب وصف بها بعد ما وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات إبانة لجلالة شأنه من حيث الإضافة

وذكر بعض صفات مُنْزِل الكتاب فقال : ﴿ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فيستفاد من هذا التعبير أنه على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر وما خفي[2]، وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور ففي الآية اللف والنشر[3]، وجيء بالاسمين الجليلين مُنَكَّرَين بالتنكير التفخيمي.

ثم أغراهم على التوحيد ودعاهم إلى عبادته ﷻ بأسلوب أخاذ حيث عبر بلفظ الألوهية، واحتمال اللفظ لترك عبادة غير الله تعالى وقصر العبادة عليه ﷻ، كما أشار إلى إرسال الرسول ﷺ، وَقَدَّم النَّذَارة على البشارة بقوله تعالى :﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ هود: ٢، وهو اعتراض للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثال المأمور، وَقَدَّم كونه نذيراً؛ لأن الغرض الأصلي من البعثة الزجر عن الشرك والتهديد وعن هذا ذُكر الإنذار وحده في بعض المواضع؛ ولأن التحلية بعد التخلية[4].

ثم إنه فتح لهم باب الرجاء بدعوتهم إلى الاستغفار في قوله ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ هود: ٣ ، وعبر بلفظ الربوبية ترغيبا لهم إذ استجابة الدعاء من مقتضيات

(١) حاشية القونوي:١٠/٤
(٢) المصدر السابق:١٠/٨
(٣) روح المعاني:٦/١٩٢
(٤) حاشية القونوي:١٠/١١، روح المعاني:٦/١٩٣

الربوبية، وتلقين لهم وإرشاد إلى طريق الابتهال وترشيح لما يذكر من التمتيع وإيتاء الفضل[1].

ودعاهم إلى التوبة إليه فقال ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾هود: ٣ ، فإن التمتيع مرتب على الاستغفار وإيتاء الفضل مرتب على التوبة[2].

ثم حذرهم مغبة التولي والإصرار على ما هم عليه بقوله ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هود: ٣ وجاء باليوم مُنَكّرا زيادة في التهويل، ثم وصفه بالكبير لتقرير هذا المعنى، وبيّن أنه لا مرجع إلا إلى الله فقال تعالى ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هود: ٤[3].

ثم أظهر للجميع أنه عليم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية فقال تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هود: ٥:

وختم الآية بجملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: نتيجة وتعليل للجملة قبله، أي يعلم سرهم وجهرهم؛ لأنه شديد العلم بالخفي في النفوس وهو يعلم الجهر بالأوْلى.

والتعبير بصيغة المبالغة بقوله "عليم": لاستقصاء التعبير عن إحاطة العلم بكل ما تسعه اللغة الموضوعة لمتعارف الناس لتحصيل تقريب المعنى المقصود[4].

ثم ضرب الله ﷻ دليلا على علمه بكونه رازقاً للدواب، فقال تعالى ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هود: ٦

ونظم الكلام على هذا الأسلوب تفننا؛ لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكد بـ"من" ، ولإدماج تعميم رزق الله كل دابة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كل دابة، فلأجل ذلك أخر الفعل المعطوف؛ لأن في التذكير بأن الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالا على أنه عليم بأحوالها؛ فإن كونه رازقا للدواب قضية من الأصول الموضوعة المقبولة عند عموم البشر، فمن أجل ذلك جعل رزق الله إياها دليلا على علمه بما تحتاجه.

---

(١) روح المعاني:٦/١٩٤
(٢) المصدر السابق:٦/١٩٤
(٣) روح المعاني:٦/١٩٥
(٤) حاشية القونوي:١٠/١٨، روح المعاني:٦/١٩٦-١٩٩ التحرير والتنوير:٦/٣٢٤

ثم ارتقى إلى خلق السماوات والأرض؛ لأنها من أكبر مظاهر علم الله وتعلقات قدرته وإتقان صنعته، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾هود: ٧

والمقصود من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته[١].وفيه تقرير التوحيد؛ لأن من شمل علمه وقدرته هو الذي يكون إلهاً لا غيره مما لا يعلم ولا يقدر على ضر ونفع وتأكيدا لما سبق من الوعد والوعيد؛ لأن العالم القادر يُرجى ويُخشى[٢].

والجزاء على الأعمال إكمال لمقتضى الحكمة[٣].

ثم عرض لعناد المشركين وتهكمهم بالدعوة فقال تعالى ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ هود: ٧.

فإذا أخبرهم الرسول ﷺ بالبعث وأن شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا.

وإذا أنذرهم ﷺ بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربانية استفهموا عن سبب حبسه عنهم مستهزئين[٤].

فقال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾هود: ٨

ثم أخبر الله ﷻ بقوله ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هود: ٨

فافتتاح الكلام بحرف التنبيه: للاهتمام بالخبر؛ لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.

وقدم الظرف: للإيماء بأن إتيان العذاب لا شك فيه حتى أنه يوقَّت بوقت.فليس مدفوعاً أو مقصى عنهم؛ بل محاطاً بهم، ولذا عبر بصيغة المضي في "حاق بهم ": مستعملة في معنى التحقيق[٥]، ومبالغة في التأكيد والتقرير[٦].

ثم ذكر الله ﷻ أن ما هم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله، وأنهم بطروا نعمة التمتع فسَخِروا بتأخير العذاب، بيَّن في هذه الآية أن أهل الضلالة راسخون في ذلك؛ لأنهم لا يفكرون في غير اللذات الدنيوية فتجري انفعالاتهم على حسب ذلك دون

(١) التحرير والتنوير:٧/٧
(٢) حاشية القونوي:١٠/٢٢، روح المعاني:٦/٢٠٥
(٣) التحرير والتنوير:٧/٨
(٤) التفسير الكبير:١٧/١٨٩، التحرير والتنوير:٦/١٠
(٥) المصدر السابق:٦/١١
(٦) التفسير الكبير:١٧/١٩٠، روح المعاني: ٧/٢١٥

رجاء لتغير الحال[1]؛ فقال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ هود: ٩

ثم ذكر الله ﷻ الحالة التي تضاد الحال التي قبلها، وأنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وما كان فيه من الضراء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال؛ فقال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ هود: ١٠.

ثم استثنى الله ﷻ من "الإنسان" الذين صبروا وهم المؤمنون بالله؛ لأن الصبر من مقارنات الإيمان فَكنَّى بالذين صبروا عن المؤمنين؛ فإن الإيمان يَروض صاحبه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضلالة؛ فقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ هود: ١١.

ثم نبه الله ﷻ نبيه ﷺ إلى عدم اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء يأساً قد يَبْعَث على ترك دعائهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ هود: ١٢

والتذييل بقوله "والله على كل شيء وكيل" ، وهي معطوفة على جملة " إنما أنت نذير" لما اقتضاه القصر من إبطال أن يكون وكيلا على إلجائهم للإيمان.

وجاء الكلام بصيغة العموم: ليكون تذييلا وإتيانا للغرض بما هو كالدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلي تسلية النبي ﷺ بأن الله مُطَّلع على مكر أولئك، وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبي ﷺ جهده في التبليغ[2].

ثم انتقل الله ﷻ إلى إبطال مزاعم المشركين حيث قالوا: إن هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجة فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هود: ١٣؛ فإن لم يستجب لكم من تدعو لهم فأنتم أعجز منهم؛ لأنكم ما تدعونهم إلا حين تشعرون بعجزكم دون معاون فلا جرم يكون عجز هؤلاء موقعاً في يأس الداعين من الإتيان بعشر سور.

وتحداهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحداهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس.

فقال ابن عباس وجمهور المفسرين: كان التحدي أول الأمر بأن يأتوا بعشر مثل القرآن.

---

(١) المصدر السابق:٦/١٢

(٢) التحرير والتنوير:٦/١٨-١٩

وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة، كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وهو الذي يعتمد عليه.

وقال المبرد: تحداهم أولاً بسورة ثم تحداهم هنا بعشر سور؛ لأنهم قد وسع عليهم هنا بالاكتفاء بسور مفتريات فلما وسع عليهم في صفتها أكثر عليهم عددها. وما وقع من التحدي بسورة اعتبر فيه مماثلتها لسور القرآن في كمال المعاني(١)، وليس بالقوي(٢).

ثم فرّع الله على قوله " وادعوا من استطعتم " فقال تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هود: ١٤، ومعنى هذا التفريع: أي فإن لم يستجب لكم من تدعو لهم فأنتم أعجز منهم لأنكم ما تدعونهم إلا حين تشعرون بعجزكم دون معاون فلا جرم يكون عجز هؤلاء موقعا في يأس الداعين من الإتيان بعشر سور.

وقوله " وأن لا إله إلا الله " : جار مجرى التهديد؛ كأنه قيل: لما ثبت بهذا الدليل كون محمد ﷺ صادقا في دعوى الرسالة وعلمتم أنه لا إله إلا الله، فكونوا خائفين من قهره وعذابه واتركوا الإصرار على الكفر واقبلوا الإسلام(٣).

ثم إن الله سبحانه بعد أن بين نهوض الحجة عليهم، توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها ، فلذلك حذروا من أن يغتروا بالمتاع العاجل وأعلموا بأن وراء ذلك العذاب الدائم؛ وأنهم على الباطل، فقال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ - ١٦

الأظهر في تلك الآية أنها واردة في الناس على العموم كافرهم ومسلمهم، والمعنى: أن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك(٤).

قوله تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ هود: ١٧

(١) واختاره الشهاب في حاشيته:١٣٥/٥
(٢) التحرير والتنوير:٢٠/٦
(٣) التفسير الكبير:١٩٧/١٧
(٤) التفسير الكبير:١٩٨/١٧، التحرير والتنوير:٢٣/٦، فتح القدير:٦٨١/٢

التفريع بالفاء: تفريع على جملة ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هود: ١٣ - ١٤ ، وأن ما بينهما اعتراض.

والفائدة: تقرير توغلهم في المكابرة وابتعادهم عن الإيمان، وهذا التفريع تفريع الضدّ على ضده في إثبات ضد حكمه له، أي إن كان حال أولئك المكذبين كما وُصف فثَمّ قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البينات والشواهد، فهم يؤمنون بالقرآن وهم المسلمون.

الاستفهام: الهمزة للاستفهام التقريري، أي: إن كفر به هؤلاء أفيُؤمِنُ به من كان على بينة من ربه[1].

ثم خاطب الله ﷻ النبي ﷺ بقوله تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هود: ١٧.

فالنهي مستعمل كناية تعريضية بالكافرين بالقرآن، ولا يلزم من نهيه عليه السلام عنه وقوعه ولا توقعه منه ﷺ[2].

واختير النهي على المرْية دون النهي عن اعتقاد أنه كذب؛ لأن النهي عن الامتراء فيه يقتضي النهي عن الجزم بالكذب بالأوْلى.

وفيه تعريض: بأن ما فيه المشركون من اليقين بكذب القرآن أشد ذماً وشناعة[3].

ثم تحدث عن الذين يفترون على الله الكذب بأسلوب الاستفهام فقال سبحانه وتعالى﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ هود: ١٨ -١٩.

وإنما خصهم بالعرض على الله مع أنه عام للجميع تحذيرا لهم، وإرهابا وتذكيرا حتى لا يفتضحون بين الخلق .

والاستفهام: سؤال إنكار يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم[4].

وجملة " ألا لعنة الله على الظالمين " : افتتحها بحرف التنبيه: لمناسبة مقام التشهير.

والظاهر أن هذا من كلام الأشهاد. ويدل عليه قوله تعالى " فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ".

---

(١) التحرير والتنوير:٦/٢٧-٢٨
(٢) التحرير والتنوير:٦/٣٠، روح المعاني:٦/٢٣٠
(٣) التحرير والتنوير:٦/٣١
(٤) التفسير الكبير:١٧/٢٠٤، التحرير والتنوير:٦/٣٢-٣٣

ويدل عليه من السنة ما رواه الشيخان[1] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله تعالى يدني المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رب أعرف حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)[2].

ثم ذكر من صفاتهم فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ هود: ١٩. أي يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه، وكل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد[3].

وهنا انتهى كلام الأشهاد؛ لأن نظيره الذي في سورة الأعراف في قوله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ الأعراف: ٤٤ - ٤٥ ، الآية انتهى بما يماثل آخر هذه الآية[4].

الفرق بين هذه الآية ونظيرتها في سورة الأعراف:

الزيادة في "هم" في قوله تعالى " هم كافرون " ، وهو توكيد يُفِيدُ تَقَوِّي الحُكمَ؛ لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره إشعاراً بما يترقبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أُدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع؛ وإنما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية[5].

ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ ﴾ هود: ٢٠

وهذا استئناف بياني ناشئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخر ة فإن ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل: هل هم سالمون من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب:المظالم، باب:قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين)، ح(٢٤٤١) ، ٦/٢٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ح(٧١٩١) ، ٨/١٠٥
(٢) التحرير والتنوير:٦/٣٣-٣٤، روح المعاني:٦/٢٣١
(٣) فتح القدير:٢/٦٨٥، روح المعاني:٦/٢٣٢
(٤) التحرير والتنوير:٦/٣٤
(٥) التحرير والتنوير:٦/٣٤

عذاب الدنيا؟. فأجيب بأنهم لم يكونوا معجزين في الدنيا، أي لا يخرجون عن مقدرة الله على تعذيبهم في الدنيا إذا اقتضت حكمته تعجيل عذابهم.(١)

وهذا من تمام رحمة الله بهم فإنه تعالى يوقفهم على حقيقة أمرهم وأنهم في مقدوره سبحانه

ثم بيّن أنه لا أحد ينصرهم من الله فقال سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ هود: ٢٠

والمفسرون على أن المراد بالأولياء:

إما أن يكونوا الأنصار الذين ينصرونهم، أي ما لهم من ناصر ينصرهم من دون الله، أو يراد بهم الأصنام التي تولوها، وأخلصوا لها المحبة والعبادة .

ونفي الأولياء عنهم: نفي أثر هذا الوصف، أي لم تنفعهم أصنامهم وآلهتهم(٢).

وفي قوله تعالى﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾.

في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول: وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره(٣)، ونقله عن ابن عباس وقتادة: أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع مُنتَفِع، ولا أن يُبصرُوه إبصارَ مُهْتَدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مُقيمينَ عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصار.

وبعد أن بين لهم حقيقة أمرهم ووضّح لهم الآيات وأظهر قدرته لهم ، ولفت أنظارهم إلى ذلك، وأقام الأدلة عليها، واظهر إعراضهم وتمسكهم بما هم عليه وبيّن لهم أنهم ضعفاء لا يستطيعون نفع أنفسهم ولا دفع الضر عنهان واستمروا على عنادهم حكم عليهم بالخسران فقال:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ هود: ٢١

فقوله تعالى " أولئك " استئناف، اسم الإشارة تأكيد ثان لاسم الإشارة في قوله تعالى: " أولئك يعرضون على ربهم" : أي الموصوفون بتلك القبائح(٤).

أي إن بلغكم أنَّ قوما خسروا أنفسهم فهم المفترون على الله كذباً، فهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران(٥).

---

(١) التحرير والتنوير:٦/٣٥

(٢) فتح القدير:٢/٦٨٥، روح المعاني:٦/٢٣٢، التحرير والتنوير:٦/٣٥-٣٦

(٣) جامع البيان:١٢/٣٧١

(٤) فتح القدير:٢/٦٨٦، روح المعاني:٦/٢٣٣، التحرير والتنوير:٦/٣٨

(٥) التفسير الكبير:١٧/٢٠٨، فتح القدير:٢/٦٨٦، روح المعاني:٦/٢٣٣، التحرير

ثم ختم الجُمل المتقدمة من قوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ هود: ١٨ ، بالنتيجة الحتمية وهي قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢: مستأنفة، ولأَنَّ ما جُمِعَ لهم من الزج للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النُّذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنهم الأخسرون في الآخرة(١).

و "لا جرم" كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل، وقد أختلف أئمة العربية في تركيبها – كما سبق–، وهي بمعنى لا محالة ولا بد وقطعا ولما فيها من معنى التحقيق والتوثيق وتعامل معاملة القسم(٢).

فذكر النتيجة المؤكدة بسياق لا يدع الشك بوقوع العقوبة عليهم بسياق تضمن التوكيد بمعنى القسم بقوله "لا جرم" الدالة على معنى الكسب والوجوب والأحقية والثبات وأنه لا محالة واقع بهم؛ لأَنَّ الله حقاً يعلم ظاهرهم وباطنهم.

ومن خلال تفسير الآيات التي قبل يتبيَّن أسلوب لا جرم في هذا السياق؛ وإنما ذكرنا السياق الذي يتعلق بقوله "لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون" ، حيث يبدأ السياق من قوله تعالى " أولئك يعرضون على ربهم " ، وما تقدمه من أول السورة ليتبيَّن الفرق في وجه تخصيص سورة هود بـ"لا جرم" مع أن هناك آيات مماثلات في الافتراء والتكذيب على الله ﷻ، وكذا وجه تخصيص سورة هود بقوله " الأخسرون " ، وما ذكر في سورة النحل بقوله تعالى "الخاسرون " وهل يمكن العكس ؟

وليتبين –أيضاً– الفرق بين أسلوب "لا جرم" في سورة هود وأسلوبه في سورة النحل من كون سورة هود ذكر فيها الوعيد ونص عليه، بخلاف سورة النحل فإنَّه اكتفى بصيغة التهديد بقوله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾النحل: ٢٣، وهو ما سنوضحه في موضعه من سورة النحل.

فالجواب عن : أنه قد يرد إشكال في الذهن على هذا السياق، فيقال:

قد وردت آيات دالة على الافتراء والكذب على الله ﷻ في هذا القرآن ولم تختم هذه المواقف بالنتيجة الحاسمة بقوله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢، فمثلا قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ

والتنوير:٦/٣٨

(١) التفسير الكبير:٩/٢٠٨، والتحرير والتنوير:٦/٣٨، وروح المعاني:٤/٢٣٣

(٢) التحرير والتنوير:٦/٣٨-٣٩ ، وانظر الخلاف في "لا جرم": الكتاب:٣/١٣٨، معاني القرآن للفراء:٢/٨-٩، معاني القرآن للزجاج:٣/٤٦، إعراب القرآن:١/٥٤٨، الدر المصون:٦/٣٠٣-٣٠٤، مشكل إعراب القرآن :٢٣٠، إملاء ما من به الرحمن:٢/٣٦

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنعام: ٢٠ - ٢١.

فالسياق في سورة الأنعام يظهر جلياً فيه تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ، ليقذف بها في وجه الخصم بحيث يأخذ عليه سمعه ، ويملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتى هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب ، يسألهم ثم يجيب ، قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ الأنعام: ١٢، ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ ﴾الأنعام: ١٩ ، ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ﴾الأنعام: ٤٦ ، ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٣٧، وهكذا تَعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين ، وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية ، يقول الرازي : "والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين[1]" ويقول القرطبي :" إنَّ هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين[2] "، فالسياق سياق تقرير ، وتفند شبه المعارضين لها ، بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تَذْكُر توحيد الله ﷻ في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسل ، وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والأفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل ، وترشد الرسول ﷺ إلى اتِّباع هداهم وسلوك طريقهم ، في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر ، وتفيض في هذا بألوان مختلفة . ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك – في ربع كامل – بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾الأنعام: ١٥١،الآية . وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة ، وهو أنه خليفة في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون ، تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ،

(١) التفسير الكبير :١٧٣/٦
(٢) الجامع لأحكام القرآن :٣٨٣/٦

وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي " الابتلاء والاختبار " في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كمال المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأنعام: ١٦٥. وعليه فإنَّ تكذيبهم وشبههم في الوحي والرسالة إنما هي قضية من قضايا عدة ذكرت في هذه السورة، وجاءت مواقفهم فيها مواقف جحودٍ وَحَسَدٍ فلم يحكم عليهم عسى أن يكون لهم رجعة إلى الله ﷻ، ولذا جاءت خالية من سياق "لا جرم" كما في سورة هود، إذ السياق فيها سياق افتراء وعدم استجابة وإعراض وصد وضلال وإلقاء شبهات وطعن في الدلائل وحرب ظاهرة وباطنة أدت إلى مضاعفة العذاب فكان هذا الحكم "لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون".

وهكذا السياقات يذكر فيها ما يناسبها لفظا ومعنى، لفظا يتوافق مع أقرانه، ومعنى يوحي بهذا اللفظ ويحرر وجه فائدة "تنزيل من حكيم حميد".

ومثل ذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنعام: ٢١ ؛ فإنها في مواقف جحود وغيرة وحسد لذا كان الحكم تهديداً ووعيداً[(١)].

قال ابن عاشور:"... ولأَنَّ مضمون الآية جامع للتهديد على الشرك والتكذيب ولإثبات الحشر ولإبطال الشرك"[(٢)].

وأما عن وجه تخصيص سورة هود بقوله " الأخسرون " ، وما ذكر في سورة النحل بقوله تعالى "الخاسرون " وهل يمكن العكس ؟

فالجواب: أن آية هود قد تقدمها ما يفهم المفاضلة، ألا ترى أن قوله تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ... ﴾ هود: ١٧، الآية، يفهم من سياقها أن المراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد وكذب الرسل؟

ثم أتبع هذا بقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هود: ١٨، فهذا صريح مفاضلة، ثم استمر الآي في وصف من ذكر وعرضهم على ربهم وقول الأشهاد ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هود: ١٨ - ١٩ ، إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم، واستمر ذكرهم إلى قوله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢، فناسب لفظ الأخسرين

(١) انظر المفصل في موضوعات سور القرآن :٢٨٨، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد (٢٣)، أسلوب لا جرم::٩٦٧

(٢) التحرير والتنوير:٥١/٦، والتفسير القرآني للقرآن : ٢٩٣/٣

بصيغة التفاضل، ومقصود التفاوت ما تقدم مما يفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وأفعل من كذا في قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾، فالآيات من لدن قوله ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ هود: ١٧ إلى قوله ﴿ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢ ، مَبْنِيَّات على ما ذكرناه غير خارجة عن هذا المقصود، وقد جاء بعدها قوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هود: ٢٤.

وأيضا: لأَنَّ ما قبلها في سورة هود " يبصرون " " يفترون " ، لا يعتمدان على ألف بينهما. وفي النحل " الكافرون " " الغافلون " ، فللموافقة بين الفواصل جاء في هذه السورة "الأخسرون " وفي النحل " الخاسرون ".

ولو ورد هنا " الخاسرون " مكان " الأخسرين " لتنافى النظم وتباين السياق ولم يتناسب.

وأما آية النحل فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت.-كما سيأتي في موضعه إن شاء الله-.(١)

الموضع الثاني: جاء في سورة النحل بعد اثنتين وعشرين آية من السورة، في قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٣.

وحيث جاءت لفظة "لا جرم" مكررة في سورة النحل في ثلاثة مواضع، فيتضح سر تكرارها ببيان سياقها والحديث عن آياتها بعموم المعنى مع بيان العلاقة والتناسب بين الآيات.

فقد صُدِّرت سورة النحل بمقدمة قد حوت مثالب المشركين واعتقاداتهم الفاسدة، وقدمت ما كان الخلاف والإنكار عليه قائما وهو البعث، واستعجالهم للحساب، وكذا تنزيه الله ﷻ عن الشريك في الألوهية، بقوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل: ١، ثم بدأ سبحانه يُفَصِّل ذلك بمقدمات من النعم التي اختص بها سبحانه وتعالى ولا يقدر عليها إلا هو، ومن اتصف بذلك فهو المستحق للعبادة دون غيره، إذ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فكان السياق متدرجاً بطريقة تُبْهِرُ العقول في الإذعان والإقرار والتسليم، ثم تختم بخاتمة حتمية لهذا السياق مؤكدة بما يناسب هذا الإنكار والعناد بـ"لا جرم" الدالة على القَسَمِ

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي:٢/٧٥٣، وملاك التأويل لابن الزبير:٢/٦٥٠، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني:٩٦.

والحتمية والكسب والاستحقاق، ولذا كرر هذا السياق ثلاث مرات في هذه السورة بما يناسب القضايا المطروحة فيها؛ حتى سميت بسورة "النعم".

فمعظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية؛ والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته(١).

ولما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارق بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدتهم.

وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزؤون بالنبي ﷺ والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم.

فقال تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾النحل: ١

صُدِّرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأنْ قدْ حل ذلك المتوعد به، فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحَقَّقُ الوقوع بقرينة تفريع " فلا تستعجلوه " ؛ لأَنَّ النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لما يحل بعد.

والخطاب للمشركين ابتداء لأَنَّ استعجال العذاب من خصالهم، قال تعالى ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ الحج: ٤٧.(٢)

فكانت جملة " أتى أمر الله "كالمقدِّمة ، وجملة " سبحانه وتعالى عما يشركون " كالمقصد.

والمعنى: نزه الله نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، وتعالى الله وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة.

ولما كان استعجالهم بالعذاب استهزاء بالرسول ﷺ وتكذيبه، أُتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك فقُفي ذلك بتبرئة الرسول ﷺ من الكذب فيما يبلغه عن ربه ووصف لهم الإرسال وصفا موجزا(٣).

فقال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾النحل: ٢. وفي إنزال الملائكة بالوحي إنذار؛ لأن الخبر مسوق للذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى وكان ذلك ضلالا يستحقون عليه العقاب جعل إخبارهم بضد اعتقادهم وتحذيرهم مما هم فيه إنذارا.

(١) التحرير والتنوير:٧/٩٤
(٢) تفسير القرآن العظيم:٢/٧٣٠-٧٣١، التحرير والتنوير:٧/٩٦-٩٧
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/٧٣١، التحرير والتنوير:٧/٩٨

وفي قوله " على من يشاء من عباده " : رَدٌّ على فنونٍ من تكذيبهم، فقد قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف: ٣١ ، وقالوا ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ الزخرف: ٥٣ ، وقالوا ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ الفرقان: ٧ ، ومشيئة الله جارية على وفق حكمته قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام: ١٢٤ [1].

ثم ابتدئ الله بالدلالة على اختصاصه بالخلق والتقدير؛ فأخبر عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأنَّ ذلك مخلوق بالحق لا للعبث[2]، فقال تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل: ٣ ، وذلك دليل على أن ما يُخلق لا يوصف بالإلهية كما أنبأ عنه التفريع عقب هذه الأدلة بقوله ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٧.

وأعقبه بقوله " تعالى عما يشركون " تحقيقا لنتيجة الدليل.

وعددت دلائل من الخلق كلها متضمنة نِعَماً جمة على الناس إدماجا للامتنان بنعم الله عليهم وتعريضا بأن المنعم عليهم الذين عبدوا غيره قد كفروا نعمته عليهم؛ إذ شكروا ما لم يُنعم عليهم ونسوا من انفرد بالإنعام، وذلك أعظم الكفران، كما دل على ذلك عطف ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ النحل: ١٨ ، على جملة ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا ﴾.

والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع؛ لأنها محوية لهما؛ ولأنهما من أعظم الموجودات. فلذلك ابتدئ بهما؛ لكن ما فيه من إجمال المحويات اقتضى أن يعقَّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثني بخلق الإنسان وأطواره وهو أعجب الموجودات المشاهدة، ثم بخلق الحيوان وأحواله؛ لأنَّه يجمع الأنواع التي تلي الإنسان في إتقان الصنع مع ما في أنواعها من المنن، ثم يخلق ما به حياة الإنسان والحيوان وهو الماء والنبات، ثم يخلق أسباب الأزمنة والفصول والمواقيت، ثم يخلق المعادن الأرضية، وانتقل إلى الاستدلال بخلق البحار ثم بخلق الجبال والأنهار والطرقات وعلامات الاهتداء في السير.

وبعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق ابتداء من قوله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ النحل: ٣، وثبتت المنَّة وحق الشكر، فَرَّعَ على ذلك قوله ﷻ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٧، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ

(١) التحرير والتنوير:٧/٩٨-٩٩
(٢) تفسير القرآن العظيم:٢/٧٣١

﴿ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ١٨. لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة إنكاراً على المشركين.

والاستفهام: إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق.

وبعد أنَّ أثبت الله سبحانه أنه منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله " أفمن يخلق كمن لا يخلق " انتُقل هنا إلى إثبات أنه منفرد بعموم العلم. فقال تعالى " والله يعلم ما تسرون وما تعلنون " : ولم يقدم لهذا الخبر استدلال ولا عقب بالدليل؛ لأنَّه مما دلت عليه أدلة الانفراد بالخلق؛ لأنَّ الخالق يلزم أن يكون عالما بدقائق كل شيء.

والمخاطب هنا: هم المخاطبون بقوله " أفلا تذكرون "، وفيه : تعريض بالتهديد والوعيد بأنَّ الله محاسبهم على كفرهم.

وفيه إعلام بأنَّ أصنامهم بخلاف ذلك كما دل عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي؛ فإنَّه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ النحل: ٢٠ - ٢١

عطف على جملة " أفمن يخلق كمن لا يخلق " وجملة "والله يعلم ما تسرون وما تعلنون "

والظاهر أن الخطاب هنا متمحض للمشركين.

والمقصود: التصريح بما استفيد ضمنا مما قبلها وهو نفي الخالقية ونفي العلم عن الأصنام.

وفي الإتيان بقوله " غير أحياء " بعد أموات: تأكيد لمضمون جملة " أموات "، للدلالة على عراقة وصف الموت فيهم بأنه ليس فيه شائبة حياة؛ لأنهم حجارة(١).

وجملة " وما يشعرون أيان يبعثون " : إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى؛ لأنَّ هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيدٌ لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ النحل: ٢٢ (٢).

ويكون هذا على طريقة التهكم بهم؛ لأنَّ شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة فضلاً عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله سبحانه(٣).

(١) فتح القدير:٣/٢٢١، التحرير والتنوير:٧/١٢٥-١٢٦
(٢) التحرير والتنوير:٧/١٢٦
(٣) فتح القدير:٣/٢٢١-٢٢٢

وبعد هذه المحاجة المقرونة بالأدلة والبراهين الساطعة، ذكر سبحانه وتعالى نتيجةً لحاصل المحاجة الماضية، بقوله تعالى ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٢ - ٢٣

أي قد ثبت بما تَقَدَّم إبطال إلهية غير الله، فثبت أنَّ لكم إلهاً واحداً لا شريك له، ولكون ما مضى كافياً في إبطال إنكارهم الوحدانية.

والتفريع على هذا الإخبار بجملة " فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة " : أي يتفرع على هذه القضية القاطعة بما تقدَّم من الدلائل أنكم قلوبكم منكرة وأنتم مستكبرون وأن ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة[1].

وعبر بالجملة الاسمية "قلوبهم منكرة": للدلالة على أنَّ الإنكار ثابت لهم دائم لاستمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أنَّ الإنكار صار لهم سجية وَتَمَكَّن من نفوسهم؛ لأنهم ضروا به من حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التَّبَصُّر في العواقب[2].

وبلاغة إسناد الإنكار إلى القلوب: لأنها محله[3].

وكذلك جملة "وهم مستكبرون" بنيت على الاسمية: للدلالة على تمكن الاستكبار منهم.

وقوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٣

ثم ختم الله هذه الآيات التي تسفّه عقول المشركين وتوبّخهم على شركهم بتهديد ووعيد على أعمالهم، فبعد أنْ بَيَّنَ بأنهم مستكبرون عن الاعتراف بالوحدانية وعن الآيات الدالة عليها، وأنَّ إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين القطعية؛ ذكر النتيجة المؤكدة بسياق لا يدع الشك بوقوع العقوبة عليهم بسياق تضمن التوكيد بمعنى القسم بقوله "لا جرم" الدالة على معنى الكسب والوجوب والأحقية والثبات وأنَّه لا محالة واقع بهم؛ لأنَّ الله حقاً يعلم ظاهرهم وباطنهم–وقد ذكرنا الخلاف بين النحاة سابقاً–.

قال أبو حيان:" وقرأ عيسى الثقفي إن بكسر الهمزة[1] على الاستئناف والقطع مما قبله[2]. وقال بعض أصحابنا: وقد يغني لا جرم عن لفظ القسم، تقول: لا

(١) التحرير والتنوير:١٢٧/٧
(٢) التحرير والتنوير:١١٩/٧
(٣) روح المعاني:٣٦٣/٧

جرم لآتينك، فعلى هذا يكون لقوله: إن الله بكسر الهمزة تعلق بلا جرم، ولا يكون استئنافاً[٣].

وتعقبه السمين الحلبي فقال: والعامة على فتح الهمزة من "أن الله" وكَسَرَها عيسى الثقفي، وفيها وجهان، أظهرهما: الاستئناف. والثاني: جَرَيان "لا جَرَم" مَجْرَى القسم فَتُتَلَقَّى بما يُتَلَقَّى به. وقال بعض العرب: "لا جرم والله لا فارقتُك" وهذا عندي يُضعف كونَها للقسم لتصريحه بالقسم بعدها، وإن كان الشيخ[٤]أتى بذلك مُقَوِّيَاً لجريانها مَجرى القسم[٥].

وجملة " أن الله يعلم " خبر مستعمل كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار وغيرهما بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار وغيرهما مؤاخذة عقاب وانتقام، فلذلك عقب بجملة " إنه لايحب المستكبرين " الواقعة موقع التعليل والتذييل لها[٦].

وأما عن الفرق بين السياقين في كون الله ﷻ ذكر في سورة هود العذاب الواقع في سياق لا جرم فقال سبحانه ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ هود: ٢٢، بينما – هنا- في سورة النحل لم يذكر العذاب في سياق لا جرم في قوله تعالى ﴿ لَاجَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾النحل: ٢٣.

في هذه السورة ذكر الله ﷻ من الدلائل والبراهين والنعم الدالة على وحدانيته وألوهيته وأنه لا طاقة لمخلوق بإنكارها أو دفعها وكذا صرفها لغير الله ﷻ، كما بينا في سر تَعْرِيَة الجملة عن المؤكد في قوله تعالى ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ : تنزيلا لحال المشركين بعدما سمعوا من الأدلة منزلة من لا يظن به أنه يتردد في ذلك.

جاء الوعيد هنا بما لا يتصور ولا طاقة لمخلوق بمعرفته؛ لأنَّ من أنكر الوحدانية بعد هذه الأدلة الدامغة والقاطعة إنما كان عن تكبر وعناد ولذا عقب الله سبحانه بقوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٣.

---

(١) انظر البحر المحيط:٦/٥١٩، والشواذ:٧٢
(٢) في قوله تعالى : (لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) سورة النحل ٢٣
(٣) البحر المحيط:٦/٥١٩
(٤) هو أبو حيان الأندلسي كما في البحر المحيط: ٦/٥١٩
(٥) الدر المصون:٧/٢٠٦
(٦) التحرير والتنوير:٧/١٢٠

بخلاف سورة هود فقد جاء الوعيد منصوصاً عليه تسلية للنبي ﷺ وتثبيتاً له كما بينا تفصيل ذلك في موضعه.

ولو قيل: إن عدم ذكر الوعيد –هنا– إنما ليكون أدعى في القبول بعد ذكر هذه النعم التي امتن الله عز وجل بها عليهم، إذ المقام مقام امتنان فلم يناسب التصريح بالعذاب والنص عليه، لكان له وجاهة. وهو ما سيتضح في سر تكرار "لا جرم" في سورة النحل. والله أعلم

الموضع الثالث: وهو الموضع الثاني من سورة النحل وقد جاء بعد تسع وثلاثين آية من الموضع الأول من هذه السورة، في قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ النحل: ٦٢

وكان بداية السياق بعد الموضع الأول من السورة قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ النحل: ٢٤ - ٢٥

فهذه الآية عطف على جملة " قلوبهم منكرة " ؛ لأنَّ مضمون هذه من أحوالهم المتقدم بعضُها؛ فإنه ذُكر استكبارهم وإنكارهم الوحدانية، وأتبع بمعاذيرهم الباطلة لإنكار نبوة محمد ﷺ ، وبصدهم الناس عن اتباع الإسلام. والتقدير: قلوبهم منكرة ومستكبرة فلا يعترفون

بالنبوة ولا يخلّون بينك وبين من يتطلب الهدى مضلون للناس صادوهم عن الإسلام(١).

وإذا سئلوا عنها قالوا: أباطيل وترهات يتحدث الناس بها عن القرون الأولى، قاله قتادة(٢).

واستعملت الأوزار في الجُرم والذنب: لأنه يثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذنب بالوزر.

كما وصف الأوزار بـ"كاملة": تحقيقا لوفائها وشدة ثقلها ليسري ذلك إلى شدة ارتباكهم في تبعاتها إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار، وبأن ما يفعلون من الحسنات لا تكفر عنهم شيئاً(٣).

(١) التحرير والتنوير:١٣٢/٧
(٢) جامع البيان:٩٥/١٤، الهداية إلى بلوغ النهاية:٣٩٧٢/٦
(٣) معالم التنزيل:١٥/٥

ولما ذكر عاقبة إضلالهم وصدهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدنيا من الخزي والعذاب مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم؛ وأنهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكروا برسلهم، فقال: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٢٦.

ولما كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ النحل: ٢٤، مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سمي ذلك مكرا بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضر بالغير في صورة تمويهه بالنصح والنفع، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم، أي من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، قال تعالى في قوم صالح ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ النمل: ٥٠ الآية، وقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٣.

وقيل في الآية تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا.

وقيل إنه محمول على الظاهر فالمعنى: أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة وهم تحته، ويفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها(١).

وقال ابن عباس: المراد بالسقف السماء؛ أي: إنَّ العذاب أتاهم من السماء التي هي فوقهم(٢).

والمعنى: أن العذاب المذكور حل بهم بغتة وهم لا يشعرون فإن الأخذ فجأة أشد نكاية لما يصحبه من الرعب الشديد بخلاف الشيء الوارد تدريجا فإن النفس تتلقاه بصبر(٣).

وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾النحل: ٢٧، عطف على ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ النحل: ٢٥؛ لأنَّ ذلك وعيد لهم وهذا تكملة له(٤).

ولما كان المقام مقام تهكم كان الاستفهام عن المكان مستعملا في التهكم ليظهر لهم كالطماعية للبحث عن آلهتهم. والمعنى: أين من تشاقون وتعادون أنبيائي

(١) التفسير الكبير: ٢٠/٢٠
(٢) ذكر هذه الأقوال القرطبي انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٩٠
(٣) التفسير الكبير: ٢٠/٢٠
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٩١

بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وهم علموا أن لا وجود لهم ولا مكان لحلولهم..فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذر المشاركة[1].

وقرأ نافع "تشاقون" – بكسر النون – على حذف ياء المتكلم، أي: تعاندونني، وذلك بإنكارهم ما أمر الله على لسان رسوله ﷺ.

وقرأ البقية : "تشاقون" – بفتح النون – وحُذف المفعول للعلم، أي: تعاندون من يدعوكم إلى التوحيد.

وقوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ النحل: ٢٧، جملة ابتدائية حكت قول أفاضل الخلائق حين يسمعون قول الله تعالى: ﴿ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ ﴾النحل: ٢٧. وأن الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لما وجم المشركون فلم يحيروا جوابا[2].

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ النحل: ٢٨ – ٢٩.

أطبق من تصدى لربطه بما قبله من المفسرين، على جعل " الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم " الآية بدلاً من "الكافرين" في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ النحل: ٢٧ ، أو صفة له[3]. فالوجه أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً. وقد جاء وصف المتوفين في الآية بأنهم "ظالمي أنفسهم" ظالمي أنفسهم: ليرمي إلى أنَّ توفي الملائكة إياهم ملابس لغلظة وتعذيب، قال تعالى ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ الأنفال: ٥٠.

قرأ الجمهور: "تتوفاهم": باقتران الفعل بتاء المضارعة : باعتبار إسناده إلى الجماعة.

وقرأ حمزة وخلف: "يتوفاهم" بالتحتية: على الأصل.[4].

ثم قال تعالى ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ النحل: ٢٩. أي: فادخلوا أبواب جهنم: يقال لهم ذلك عند الموت، أو بشارة لهم بعذاب القبر.

وتفريعها على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر؛ لأن إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب، وذلك عندما كشف لهم عن مقرهم الأخير[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن:٩١/١٠، التحرير والتنوير:١٣٦/٧

(٢) التحرير والتنوير:١٣٦/٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٩١/١٠

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٩١/١٠، حاشية القونوي: ٢٦١/١١

ثم اتبع الله ﷻ بذكر وصف المؤمنين الذين إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً، وذكر ما أعده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات ليكون وعد هؤلاء مذكوراً مع وعيد أولئك.

قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٣٠ - ٣٢

والمعنى: أن المؤمنين سُئلوا عن القرآن ، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يترددوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة "خيراً"[٢]، فلم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال[٣].

وقوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ النحل: ٣٣، وهذه هي الشبهة الثانية لمنكري النبوة؛ فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى مَلَكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة فقال تعالى " هل ينظرون " في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك.

ويحتمل أنْ يقال: إنَّ القوم لما طعنوا في القرآن بأنْ قالوا: "إنَّه أساطير الأولين"، وذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم، ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيراً وصدقاً وصواباً، عاد إلى بيان أنَّ أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البينات التي ذكرناها، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال[٤].

والاستفهام : إنكاري في معنى النفي، ولذلك جاء بعده الاستثناء. [٥].

وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ

(١) التحرير والتنوير:١٤٠/٧
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩٢/١٠، التحرير والتنوير:١٤١/٧
(٣) التفسير الكبير:٢٣/٢٠
(٤) المصدر السابق:٢٦/٢٠
(٥) التحرير والتنوير:١٤٥/٧

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ النحل: ٣٥ - ٣٧.

عطف قصة على قصة لحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم وباب من أبواب تكذيبهم(١).

وهذه هي الشبهة الثالثة لمنكري النبوة، وتقريرها: أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان، سواء جئت أو لم تجيء، ولو شاء الله الكفر فإنَّه يحصل الكفر سواء جئت أو لم تجيء، وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله تعالى ولا فائدة في مجيئك وإرسالك، فكان القول بالنبوة باطلا(٢).

ثم قال تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ النحل: ٣٨ - ٤٠

وهذه هي الشبهة الرابعة لمنكري النبوة فقالوا القول بالبعث والحشر والنشر باطل ؛ فكان القول بالنبوة باطلا. وتقريره من وجهين:

الأول: أنَّ محمداً ﷺ كان داعيا إلى تقرير القول بالمعاد ؛ فإذا بطل ذلك ثبت أنه كان داعياً إلى القول الباطل. ومن كان كذلك لم يكن رسولاً صادقاً.

الثاني: أنَّه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته بناء على الترغيب والترهيب عن العقاب، وإذا بطل ذلك بطلت نبوته.

وَيُرَدُّ عليهم بإمكان الحشر والنشر: أنَّ الله موجدٌ للأشياء ومكونٌ لها، بمحض قدرته ومشيئته، ولذا عبر الله ﷻ عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وإذا كان كذلك ، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادراً عليه في الإعادة.

والقوم إنما طعنوا في صحة النبوة بناء على الطعن في هذا الأصل، فلما بطل هذا الطعن بطل إيضا طعنهم في النبوة . والله أعلم

ولما حكى الله عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة دَلَّ ذلك على أنهم تمادوا في الغي، والجهل، والضلال، وفي مثل هذه الحالة لا

(١)اللباب في علوم الكتاب:١٢/٥٢-٥٣، التحرير والتنوير:٧/١٤٧.
(٢) التفسير الكبير:٢٠/٢٧

يبعد إقدامهم على إيذاء المسلمين وَضَرِّهم، وإنزال العقوبات بهم، وحينئذ يلزم على المؤمنين أن يهاجروا عن تلك الديار والمساكن، فذكر تعالى في هذا حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من الحسنات في الدنيا، والأجر في الآخرة من حيث هاجروا وصبروا وتوكلوا على الله، وذلك ترغيب لغيرهم في طاعة الله تعالى، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل: ٤١ - ٤٢.(١)

ثم ذكر الله ﷻ قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ النحل: ٤٣ - ٤٧.

وهذه هي الشبهة الخامسة لمنكري النبوة كانوا يقولون: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر، بل لو أراد بِعْثَة رسول إلينا لكان يبعث ملكاً.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ والمعنى: أنَّ عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنَّه لم يبعث رسولاً إلا من البشر، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى، وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك أيضا طعن قديم فلا يلتفت إليه.

وبعد أن خوف المشركين بالأنواع الأربعة المذكورة من العذاب، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي، وتدبير أحوال الأرواح والأجسام، ليظهر لهم أن مع كمال هذه القدرة القاهرة، والقوة غير المتناهية لا يعجز عن إيصال العذاب إليهم على أحد تلك الأقسام الأربعة. فقال تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ النحل: ٤٨ - ٥٠.(٢)

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٥١ - ٥٥.

(١) التفسير الكبير: ٢٠/٣٥، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/٥٦
(٢) التفسير الكبير: ٢٠/٣٥، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/٦١

فالله ﷻ لما بَيَّنَ في الآية الأولى أنَّ كل ماسوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأنَّ كل ما سواه فهو ملكه وأنَّه غني عن الكل فقال " لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد" (١).

ولما بَيَّنَ في الآية الأولى أنَّ الواجب على العاقل أن لا يتقي غير الله، بَيَّنَ في هذه الآية أنَّه يجب عليه أن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى؛ لأنَّ الشكر إنما يلزم على النعمة، وكل نعمة حصلت للإنسان فهي من الله تعالى لقوله " وما بكم من نعمة فمن الله " فثبت بهذا أن العاقل يجب عليه أن لا يخاف وأن لا يتقي أحداً إلا الله وأن لا يشكر أحداً إلا الله تعالى(٢).

ثم بَيَّنَ حالهم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر، أي لا يستغيث أحدٌ إلا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزع للخلق إلا هو، فكأنه تعالى قال لهم فأين أنتم عن هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة، ثم قال بعده ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ النحل: ٥٤ ، فَبَيَّنَ تعالى أنَّ عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره، وهذا جهل وضلال(٣).

ثم لما بَيَّنَ بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه، شرح في هذه الآية تفاصيل أقوالهم وَبَيَّنَ فسادها وسخافتها، فقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ النحل: ٥٦ - ٦٠ (٤).

(١) معاني القرآن وإعرابه:٢٠٤/٣، إعراب القرآن للنحاس:٣٩٧/٢، الهداية إلى بلوغ النهاية:٤٠١٠/٦
(٢) التفسير الكبير:٥١/٢٠، اللباب في علوم القرآن:٦١/١٢
(٣) التفسير الكبير:٥١/٢٠، اللباب في علوم الكتاب:٨٣/١٢
(٤) التفسير الكبير:٥٣/٢٠، الباب في علوم الكتاب:٨٥/١٢

ثم لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم، بَيَّنَ أنَّه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة، إظهارا للفضل والرحمة والكرم، ويجمع لهم بين الترغيب والترهيب.

فقال تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ النحل: ٦١ - ٦٢.

قال الفراء[١] والزجاج[٢]: موضع "أن" نصب؛ لأن قوله " أن لهم الحسنى" بدل من الكذب، وتقدير الكلام: وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى.

وفي تفسير الحسنى أقوال:

الأول: المراد منه البنون، يعني أنهم قالوا: لله البنات ولنا البنون.

الثاني: أنهم مع قولهم بإثبات البنات لله تعالى، يصفون أنفسهم بأنهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول، وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن.

الثالث: أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى.

وقيل: الأولى أن يحمل " الحسنى " على هذا الوجه بدليل أنَّه تعالى قال بعده " لا جرم أن لهم النار " فَرُدَّ عليهم قولهم وأثبت لهم النار، فَدَلَّ على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة.

في قوله تعالى " لا جرم " رَدٌّ لكلامهم وإثبات لضده، فالرد بكلمة "لا" والإثبات بـ"جرم" بمعنى كسب، أي: كسب ما صدر منهم أنَّ لهم النار؛ فإنَّ لهم النار الخ في محل نصب على المفعولية وهذا قول الزجاج.

وقيل: في محل رفع، و"جرم" بمعنى وجب وثبت وهو قول قطرب[٣].

وقيل: "لا جرم" بمعنى :حقاً، وأن لهم النار في محل رفع فاعل حق المحذوف، وهو قول الجمهور[٤].

وكل هذه المعاني يحملها ويدل عليها لفظ "لا جرم" فمناسبة هذا اللفظ في هذا الموضع وأمثاله ظاهرة الدلالة مع ما تضمنه هذا اللفظ من دلالة القسم ، والتي لا

(١) معاني القرآن:١٠٧/٢
(٢) معاني القرآن وإعرابه:٢٠٦/٣
(٣) معاني القرآن وإعرابه:٢٠٦/٣
(٤) حاشية الشهاب:٦٠٥/٥

يمكن للفظ أن يحل محله ويأتي بالأغراض الملائمة لهذا الموضع، وقد مر تفصيل لذلك وطرف منه .

وقوله " وأنهم مفرطون " :متركون منسيون في النار، قاله ابن الأعرابي وأبو عبيدة والكسائي والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد.

وقيل: مبعدون، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقيل: مُعَجَّلُون إلى النار مُقَدَّمون إليها، قاله قتادة والحسن.

والفارط: الذي يتقدم إلى الماء؛ ومنه قول النبي ﷺ: (أنا فرطُكم على الحوض) [(١)]. أي مُتَقَدَّمَكم. وقال القطامي:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجل فرَّاط لوُرَّاد.

وقرأ نافع في رواية ورش "مُفْرِطون" بكسر الراء وتخفيفها، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس، ومعناها: مُسْرِفون في الذنوب والمعصية، أي أفرطوا فيها.

وقرأ أبو جعفر "مُفَرِّطون" بكسر الراء وتشديدها، أي مضيّعون أمر الله، من التفريط في الواجب[(٢)].

الموضع الرابع: وهو الموضع الثالث من سورة النحل، وقد جاء بعد سبع وأربعين آية من الموضع الثاني من هذه السورة، في قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ النحل: ١٠٩

بدأ هذا المقطع بتسلية النبي ﷺ-بعد النتيجة الحتمية السابقة للمخالفين- فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم، حيث بَيَّنَ الله تعالى أنَّ مثل هذا الصنع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدمين عليهم الصلاة والسلام، فقال ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النحل: ٦٣ ، ثم ذكر تعالى أنَّ مع هذا الوعيد الشديد قد أقام الحجة وأزاح العلة فقال ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ النحل: ٦٤.

وبما أن المقصود الأعظم هو تقرير الإلهيات، فلهذا كلما امتد الكلام في فصل من الفصول وطال أعيد تقرير الإلهيات مرة أخرى، لمناقشة الشاكين والمفترين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الرقاق، باب في الحوض، ح(٦٥٧٥)، ٢٤٠٤/٥، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا وصفاته ح(٦١٠٦) ، ٦٥/٧

(٢) معاني القرآن للفراء:١٠٧/٢-١٠٨، معاني القرآن وإعرابه:٢٠٧/٣-٢٠٨، الجامع لأحكام القرآن:١٠٨/١٠

والمستكبرين والصادين عن قبول دعوة الحق وإفراد الله ﷻ بالعبادة لعل قلوبهم المنكرة تعترف وتنقاد للواحد الأحد، فههنا لما عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات بدأ أولاً بذكر الفلكيات فقال ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾النحل: ٦٥، ثم استدل بعجائب أحوال الحيوانات فقال ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ النحل: ٦٦ (١).

ولما ذكر الله تعالى هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر قال ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ٦٧، والمعنى: أنَّ من كان عاقلا، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فيحتج بحصولها على توحيد الإلهية لله القادر الحكيم.

فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود(٢).

ولما ذكر الله تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس.فقال سبحانه ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ النحل: ٧٠ (٣).

وذكر بعده اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان وهو المفاضلة في الرزق فقال ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ النحل: ٧١.

وتدرج الله في ذكر نوع آخر من أحوال الناس وهو قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ النحل: ٧٢

ولما فَصَّل الله سبحانه وتعالى أنواعاً كثيرة دلالة على وحدانيته في الربوبية وأنَّ هذا يستلزم توحيد الإلهية، فكذلك بدأ بذكر أقسام النعم الجليلة الشريفة، ثم أتبعها بالرد على عبدة الأصنام فقال ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٧٣ - ٧٤ (٤).

وقوله " فلا تضربوا لله الأمثال " فيه وجوه:

---

(١) التفسير الكبير: ٢٠/٦٣، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/٩٨
(٢) التفسير الكبير: ٢٠/٦٩، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/١٠٩
(٣) التفسير الكبير: ٢٠/٧٤، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/١١٤
(٤) التفسير الكبير: ٢٠/٧٨، اللباب في علوم الكتاب: ١٢/١١٦

الأول: قال المفسرون: يعني لا تشبهوه بخلقه.

الثاني: قال الزجاج: لا تجعلوا لله مثلا؛ لأنَّه واحد لا مثل له(١).

الثالث: يحتمل أن يكون المراد أنَّ عبدة الأوثان كانوا يقولون: إنَّ إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب، أو نعبد هذه الأصنام(٢).

ثم أكد الله تعالى إبطال مذهب عبدة الأصنام بأمثلة فقال تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ النحل: ٧٥ - ٧٦.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بيان كونه كاملا في العلم والقدرة . فقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ النحل: ٧٧ (٣).

ثم إنه سبحانه وتعالى عاد إلى الدلائل الدالة على وحدانيته، وتفضله على خلقه بذكر نعمه، فقال ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ النحل: ٧٨ - ٨٣.

نعمة الله: قال السدي: النعمة هنا: محمد ﷺ يعرفون أنه نبي مرسل وينكرون ذلك.

ودَلَّ على أنها محمد ﷺ قوله قبل ذلك " فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين " يخاطب محمداً ﷺ(٤).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه:٣/٢١٣

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية:٦/٤٠٤٧-٤٠٤٨، التفسير الكبير:٢٠/٨٣-٨٤

(٣) التفسير الكبير:٢٠/٨٨

(٤) جامع البيان:١٤/١٥٧، معاني القرآن وإعرابه:٣/٢١٦، الهداية إلى بلوغ النهاية:٦/٤٠٦

وقال مجاهد: هي ما عدده الله ﷻ في هذه السورة من النعم يعرفون أن الكل من عند الله وهم ينكرون ذلك ويزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم(١).

وقال عون بن عبد الله بن عتبة: إنكارهم هنا للنعمة قولهم: لولا فلان ما كان كذا(٢).

وقيل: معناه: إن الكفار إذا قيل لهم من رزقكم؟ أقروا بأنه الله ﷻ ثم ينكرون ذلك بقولهم : إنما رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا(٣).

وبعد أن بَيَّنَ الله تعالى من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وذكر من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد، فذكر حالهم يوم القيامة فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ النحل: ٨٤ - ٨٧.

ولما ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صَدُّ الغير عن الإيمان بالله أو الرسول أو الشرائع ، فقال ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ النحل: ٨٨ ، فاللفظ عام فلا معنى للتخصيص.

ثم ذكر نوعا آخر من التهديدات المانعة للمكلفين عن المعاصي. فقال ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩(٤).

ولما استقصى الله سبحانه في شرح الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب أتبعه بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٩٠، فجمع في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق، والآداب عموماً وخصوصاً.

(١) تفسير مجاهد:٢٢٤،جامع البيان:١٥٨/١٤
(٢) جامع البيان:١٥٨/١٤، الهداية إلى بلوغ النهاية:٤٠٦٤/٦
(٣) معاني القرآن للفراء:١١٢/٢، جامع البيان:١٥٨/١٤، والجامع لأحكام القرآن:١٠٦/١٠، وفيه أنه قول الكلبي.
(٤) التفسير الكبير:٩٥/٢٠، اللباب في علوم الكتاب:١٣٦/١٢

ولما جمع كل المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال، ذكر بعض تلك الأقسام فقال تعالى ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ النحل: ٩١ - ٩٢ (١).

قال ابن قتيبة: هذه الآية متصلة بما قبلها، والتقدير: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل المرأة التي غزلت غزلا وأحكمته فلما استحكم نقضته فجعلته أنكاثاً(٢).

قال مكي: الدخل: خديعة وغرور: أي: لا تجعلوا أيمانكم خديعة وغروراً بينكم ليطمئن إليكم وأنتم مصرون على الغدر (٣).

قوله " أن تكون أمة هي أربى من أمة " : قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعز منهم وأشرف فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز، فنهاهم الله تعالى عن ذلك. فمعناه: أنكم تتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن تكون أمة أربى من أمة في العدد والقوة والشرف(٤).

ولما كلف الله تعالى القوم بالوفاء بالعهد وتحريم نقضه، أتبعه ببيان أنه تعالى قادر على أن يجمعهم على هذا الوفاء والوفاق ولما جعل اختلافاً ولا تباغضا ولا شحناء، وعلى سائر أبواب الإيمان. فقال سبحانه ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٣.

ثم أكد التحذير عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق والخصوص، فلا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها؛ فإنها قليلة، فقال سبحانه ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٩٥.

ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه وما عندهم يفرغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه، فقال سبحانه ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا

(١) التفسير الكبير:٢٠/١٠٠، اللباب في علوم الكتاب:١٢/١٤١-١٤٢
(٢) غريب القرآن:١/٢٤٨
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية:٦/٤٠٧٨-٤٠٧٩
(٤) معاني القرآن:٢/١١٣، الهداية إلى بلوغ النهاية:٦/٤٠٧٩، تفسير القرآن العظيم:٢/٧٦١

عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٦ - ٩٧ (١).

ولما ذكر سبحانه وتعالى ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أرشد إلى العمل الذي به تخلص أعماله عن الوساوس الشيطانية. فقال تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨.

ولما أمر الله رسوله بالاستعاذة من الشيطان وكان ذلك يوهم أن للشيطان قدرة على التصرف في أبدان الناس؛ فأزال الله تعالى هذا الوهم، وَبَيَّنَ أنَّه لا قدرة له ألبتة إلا على الوسوسة. فقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ النحل: ٩٩ - ١٠٠ (٢).

ثم ذكر الله سبحانه حكاية شبهة أخرى من شبهات منكري نبوة محمد ﷺ؛ وذلك لأنهم كانوا يقولون: إن محمداً إنما يذكر هذه القصص وهذه الكلمات لأنه يستفيدها من إنسان آخر ويتعلمها منه، وأجاب الله تعالى عنها . فقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ النحل: ١٠٣.

ولما ذكر الله تعالى الجواب على الشبهة أردفه بالتهديد والوعيد. فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ النحل: ١٠٤ - ١٠٥.

ولما عَظَّم الله تعالى تهديد الكافرين ذكر تفصيلا لبيان من يكفر بلسانه لا بقلبه، ومن يكفر بلسانه وقلبه معا، فقال سبحانه ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ النحل: ١٠٦ - ١٠٩

(١) تفسير القرآن العظيم:٢/٧٦٢
(٢) اللباب في علوم الكتاب:١٢/١٥٥

وفي هذه الخاتمة " لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون " أنَّ الموجب لهذا الخسران هو أنَّ الله تعالى وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة:
الصفة الأولى: أنَّهم استوجبوا غضب الله.
الصفة الثانية: أنَّهم استحقوا العذاب الأليم.
الصفة الثالثة: أنَّهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.
الصفة الرابعة: أنَّه حَرَمَهُم من الهداية، لأنهم لا يريدونها.
الصفة الخامسة: أنَّه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.
الصفة السادسة: أنَّه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون في دفعها، فثبت أنه حصل في حقهم هذه الصفات الست التي كل واحدة منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات، ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه، فلهذا السبب قال " لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون "
أي هم الخاسرون لا غيرهم، والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم [1].

الموضع الخامس: وهو في سورة "غافر" أو "مؤمن آل فرعون" وقد جاء بعد اثنتين وأربعين آية من هذه السورة، في قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ غافر: ٤٣.

سورة غافر مكية بالاتفاق، وهي واحدة من سبع سور مرتبة في المصحف على ترتيبها في النزول، كلها تبدأ بالحرفين ﴿ حمٓ ﴾ غافر: ١، وتسمى الحواميم[2] السبع أو آل حم، والتي يعني أن بينها أمراً جامعاً تختلف به عن بقية السور، ولتآخيها في فواتحها.
وقد سميت بغافر كما سميت بالمؤمن؛ لأنَّ مؤمن آل فرعون كان مثلاً صادقاً للمُجَادِل بالحق عن الحق كما كان فرعون مثلاً رديئاً للمُجَادل بالباطل عن الباطل، وتميزت هذه السورة عن أخواتها في مطلعها في الآية الثالثة في السورة، وهي قوله تعالى ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ

(١) التفسير الكبير: ٢٠/١١٤، ١٢٤-١٢٥، اللباب في علوم القرآن: ١٢/١٦٨-١٦٩
(٢) وقد ثبت أنهم جمعوا (حم) على حواميم في أخبار كثيرة عن ابن مسعود، وابن عباس، وسمرة بن جندب، ونسب في بعض الأخبار إلى النبي ﷺ ولم يثبت بسند صحيح. وعن أبي عبيدة والفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب وتبعهما أبو منصور الجواليقي. انظر التحرير والتنوير: ١١/٧٦-٧٧

﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾غافر: ٣، فالآية الأولى في السور كلها ﴿ حمٓ ﴾ ، والثانية تدور حول الوحي ونزوله، ففي غافر ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ غافر: ٢، وفي فصلت ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فصلت: ٢ ، وفي الشورى ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ ﴾ الشورى: ٣ ، وفي الزخرف ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ الزخرف: ٢ – ٣، وفي الدخان ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾الدخان: ٢ – ٣، وفي الجاثية والأحقاف ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ٢.

ووصف الله بوصفي "العزيز العليم" في غافر تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأن الله يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورَمْزٌ إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي مثله(١).

وتميزت سورة غافر بالآية الثالثة التي تشير إلى أنكم أيها المجادلون المكذبون لو رجعتم إلى الحق فإن الله " غافر الذنب وقابل التوب " وإن جادلتم وكذبتم وبقيتم على عنادكم فإن الله " شديد العقاب " ، وقد جاءت هذه الآية توطئة لموضوع السورة ، وهو مجادلة الكافرين في آيات الله ومكابرتهم، وقوبل بالمغفرة والتوبة للترغيب في الإذعان والقبول، ثم قوبل من خالف وتكبر وطغى بالوعيد والغضب (٢).

وفي لفظة "غافر" سر تسمية السورة بها، وارتكاز المقصود الأساسي لهذه السورة، المعركة بين "الحق والباطل" و"الهدى والضلال"، والترغيب في قبول الحق والهدى، وهذا هو وصف للجليل سبحانه وتعالى، وكذا كرر المغفرة في السورة في دعوة الرجل المؤمن ﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ غافر: ٤٢.

وأجري على اسم الله تعالى من صفاته ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه، فكانت فاتحة السورة مثل ديباجة الخُطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة.

وإن جدالهم تشغيب وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خمس مرات في هذه السورة.

وفي ذكرهما رمز إلى أن الله أعلم حيث يجعل رسالتَه وأنه لا يجاري أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف: ٣١، ونحو ذلك(٣).

(١) التحرير والتنوير: ١١/٧٩
(٢) انظر آل حم الجاثية – الأحقاف: ٣٤
(٣) التحرير والتنوير: ١١/٧٧

وقد اشتملت فاتحة هذه السورة على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن، ويشير إلى أنهم قد اعتزوا بقوتهم ومكانتهم، وأن ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشد منهم، فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يطلب في فواتح الأغراض مما يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال(١).

ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد بكبريائه وجبروته أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في تضاعيف القصة حلقة جديدة، لم تُعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

وفيها جاء سياق "لا جرم" في معرض المحاجة والمجادلة بين الرجل المؤمن من آل فرعون وقومه، بعد أن ختم موسى عليه السلام محاجته بقوله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ غافر: ٢٧، وكأن موسى عليه السلام ذكر السبب في عدم قبول الحق بعد بيانه والمانع له وهو الكبر وعدم الإيمان بالآخرة، وهو ما ذكر بقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ غافر: ٣٥.

فقال تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ غافر: ٢٨

قال المفسرون(٢): كان هذا الرجل ابن عم فرعون، وكان قبطيا يخفي إيمانه عن فرعون، فلما سمع قول الجبار متوعداً موسى عليه السلام بالقتل نصحهم بقوله "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله " . فالاستفهام في " أتقتلون ": استفهام إنكاري، للتبكيت عليهم، أي: أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربي الله من غير تفكر ولا تأمل في أمره؟

وارتقاء في الحِجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجَّه فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلة أنه جاء بالبينات(٣). وإن كان كاذباً في دعوى الرسالة فضرر كذبه لا يتعداه.

---

(١) التحرير والتنوير: ٨١/١١

(٢) واختلف في تعيين اسمه ولا يصح في تعيينه شيء؛ فلا دليل على شيء من ذلك. انظر أضواء البيان: ٥٤/٧، الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٨/١٥

(٣) التحرير والتنوير: ١٢٩/١١

قال القرطبي: ولم يكن ذلك لشكٍ منه في رسالته وصدقه؛ ولكن تلطفاً في الاستكفاف، واستنزالاً عن الأذى[١].

وفي هذا اعتراف من هذا المؤمن بالله الذي أنكره فرعون، رماه بين ظهرانَيْهم[٢].

وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى عليه السلام؛ لأنَّ الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريض بفرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذَّاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره[٣].

قوله تعالى ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ غافر: ٢٩

يا قوم: هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفيه دليل على أنه قبطي، ودعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديماً وتأخيراً. وأن من آل فرعون متعلق بـ"يكتم"، أي: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون أي يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لا يخفى[٤].

وتفطن فرعون إلى أنه المعرَّض به في خطاب الرجل المؤمن قومه فقاطعه كلامه، وبيَّن سبب عزمه على قتل موسى عليه السلام بأنه ما عرض عليهم ذلك إلا لأنه لا يرى نفعا إلا في قتل موسى ولا يستصوب غير ذلك ويرى ذلك هو سبيل الرشاد[٥].

وقال ما أعلمكم وأعرفكم من حقيقة موسى وأنه ينبغي أن يقتل، إلا ما أعلم وأعرف أنه الحق والصواب[٦].

ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي. قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٧].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ غافر: ٣٠ - ٣١

(١) الجامع لأحكام القرآن:١٥/٣٠٧
(٢) التحرير والتنوير:١١/١٣١
(٣) التفسير الكبير:٢٧/٥٩
(٤) أضواء البيان:٧/٥٤
(٥) التحرير والتنوير:١١/١٣٣
(٦) أضواء البيان:٧/٥٥
(٧) الجامع لأحكام القرآن:١٥/٢٧٢

جاءت هذه الآية بالوصل عطفا على كلام الذي آمن، ولم يكن فيه تعريج على محاورة فرعون، وكان الذي آمن قد جعل كلام فرعون في البَيْن واسترسل يكمل مقالته، فوصله لئلا يتوهم أنه قصد به مراجعة فرعون ولكنه قصد إكمال خطابه.(١).

قوله تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ غافر: ٣٢ - ٣٣

زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء.(٢). وفيه تعريض: بتوقعه أن يكون فرعون وقومه من جملة هذا العموم، وآثر لهم هذا دون أن يقول "ومن يهد الله فما له من مضل" ؛ لأنه أحس منهم الإعراض ولم يتوسم فيهم مخائل الانتفاع بنصحه وموعظته(٣).

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ غافر: ٣٤ - ٣٥.

هذا من تمام وعظ مؤمن آل فرعون، ارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، ذكرهم قديم عتوهم على الأنبياء، وأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف(٤) عليه السلام، فهو معروف في أسلافهم فتكون سجية فيهم(٥).حيث قال أسلافكم في وقت وفاة يوسف، لا يبعث الله في المستقبل أبداً رسولا بعد يوسف، يعنون: أنا كنا مترددين في الإيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد؛ فإنه لا يجيء من يدَّعي الرسالة عن الله. فلم يقر أولئك قط برسالة الأول ولا الآخر، ولا بأن الله يبعث الرسل(٦).

(١) حاشية الشهاب:٨/٢٦٠-٢٦١، التحرير والتنوير:١١/١٣٤-١٣٥
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٧٢-٢٧٣، حاشية الشهاب:٨/٢٦١، التحرير والتنوير:١١/١٣٦
(٣) التحرير والتنوير:١١/١٣٧
(٤) يوسف: اختلف فيه هل هو يوسف بن يعقوب أم غيره؟، والصواب: ما قاله ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهي الرؤيا.وهو ما عليه ابن جرير الطبري. فإنه لم ينسب فانصرف إلى يوسف بن يعقوب، وهو ما عليه ابن جرير الطبري.جامع البيان:٢١/٣٨٣
(٥) الجامع لأحكام القرآن:١٥/٢٧٤، التحرير والتنوير:١١/١٣٨
(٦) المحرر الوجيز:٤/٥٥٩، الجامع لأحكام القرآن:١٥/٢٧٤، التحرير والتنوير:١١/١٣٩-١٤٠

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ غافر: ٣٦ - ٣٧

ولما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، أوهم فرعون أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد؛ فإن بان له صوابه لم يخفِه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم، فنادى فرعون هامان وهو وزيره والناظر في أموره، فأمره أن يبني له بناء عاليا نحو السماء.

ولما قال فرعون بمحضر من ملإه " فأطلع إلى إله موسى " اقتضى كلامه الإقرار بـ"إله موسى"، فاستدرك ذلك استدراكا قلقاً بقوله "وإني لأظنه كاذباً " فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس(١).

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر: ٣٨ – ٤٠، أي ياقوم اتبعون أهدكم هداية دلالة وإرشاد إلى طريق الجنة، معرضا بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي(٢). وأن الدنيا نفعها مؤقت والآخرة دائم مستقر، وبعد أن اهتم بالأعمال الصالحة، لم يهمل ذكر الإيمان الذي هو رأس قبول العمل(٣).

قال تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ غافر: ٤١ – ٤٣.

أعاد نداءهم وعطف حكايته بواو العطف للإشارة إلى أن نداءه اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أن الكلام قد تخطى من غرض إلى غرض وأنه سَيَطْرَق ما يغاير أول كلامه مغايرة مَّا تُشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب، وأنه سيرتقي باستدراجهم في دَرَج الاستدلال إلى المقصود بعد المقامات، فانتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئاً جرى منهم نحوه وهو أنهم أعقبوا موعظتَهُ إياهم بدعوته للاقلاع عن ذلك وأن يتمسك

(١) المحرر الوجيز:٤/٥٦٠، الجامع لأحكام القرآن:١٥/٢٧٥-٢٧٦، التحرير والتنوير:١١/١٤٧-١٤٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن:١٥/٢٧٧، حاشية الشهاب:٨/٢٦٤

(٣) حاشية الشهاب:٨/٢٦٤، التحرير والتنوير:١١/١٥٠

بدينهم وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلت عليه حكاية إنكاره عليهم، وهو كلامُ آيسٍ من استجابتهم، لقوله " فستذكرون ما أقول لكم " ، ومُتَوقِّع أذاهم، لقوله " وأفوض أمري إلى الله " ، ولقوله تعالى آخر القصة " فوقاه الله سيئات ما مكروا " . فصرح – هنا- وَبَيَّن بأنه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى عليه السلام، وفي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة.

والاستفهام في قوله " ما لي أدعوكم إلى النجاة " : استفهام تعجبي، وفيه توبيخ، ومقابلتهم معلومة من قوله " تدعونني إلى النار " (١).

فالدعاء إلى طاعة الله وعبادته وتوحيده هو الدعاء إلى سبب النجاة؛ فجعله دعاء إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتباع دينهم: هو دعاء إلى سبب دخول النار؛ فجعله دعاء إلى النار اختصاراً، ثم بين عليهم ما بين الدعوتين من البون في أن الواحدة شرك وكفر، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عزة الله وغفرانه(٢).

قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ غافر: ٤٣

ويكون المعنى على ما تقدم من معنى "لا جرم":

قيل: "لا" رد لما دعوه إليه و"جرم" فعل بمعنى حق أي: حق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً؛ لأنها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها، أو عدم دعوة مستجابة دعوة لها.

وقيل: جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء إليه إن لا دعوة له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته.

وقيل: فعل من الجرم بمعنى القطع كما أن بد من لابد فعل من التبديد، وهو التفريق والمعنى: لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت ما فتنقلب حقاً.

وقد سبق الحديث عنها مفصلا، والأظهر أن " جرم " اسم لا فعل؛ لأنه لو كان فعلا لكان ماضيا بحسب صيغته فيكون دخول " لا " عليه من خصائص استعمال الفعل في الدعاء.والأكثر أن يقع بعدها " أنَّ " المفتوحة المشددة فيقدر معها حرف " في " ملتزما حذفه غالباً.

والتقدير: لا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.

(١) حاشية الشهاب:٢٦٥/٨، التحرير والتنوير:١٥٢/١١

(٢) المحرر الوجيز:٥٦١/٤

و"ما" : بمعنى الذي، واقعة على الأصنام وما عبدوه من دون الله. وأعيد الضمير مفردا في قوله " ليس له " مراعاة لإفراد لفظ "ما"(١).
قوله " ليس له دعوة " : أي قدر وحق يجب أن يدعى أحد إليه؛ فكأنه تدعونني إلى ما لا غناء له وبين أيدينا خطب جليل من الرد إلى الله(٢).

وفيه قولان:
أحدهما: ليس له استجابة دعوة. قاله السدي.
الثاني: ليس له شفاعة . قاله ابن السائب(٣).
وعطفت على هذه الجملة جملة " وأن مردنا إلى الله " عطفَ اللازم على ملزمه؛ لأنه إذا تبين أن رب موسى المسمى "الله" هو الذي له دعوة، تبين أن المرد، والمرجع إلى الله وأنه يجازينا بأعمالنا(٤).
المسرفين: فيه قولان:
أحدهما: المشركين. قاله قتادة
الثاني: السفاكون للدماء. قاله مجاهد(٥)
قال ابن عاشور: والوجه أن يعم أصحاب الجرائم والآثام. والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق وهو تعريض بالذين يُخاطبهم إذ هم مسرفون على كل تقدير فهم مسرفون في إفراط كفرهم، ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم.
وضمير الفصل في قوله " هم أصحاب النار " يفيد قصراً ادعائيا؛ لأنهم المتناهون في صحبة النار بسبب الخلود بخلاف عصاة المؤمنين(٦).
قوله تعالى ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ غافر: ٤٤ .
قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم – إذا عاينتم عقاب الله قد حل بكم، ولقيتم ما لقيتم – صِدقَ ما أقول، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار.

(١) المحرر الوجيز:٥٦١/٤، التحرير والتنوير:١٥٤/١١
(٢) المحرر الوجيز:٥٦١/٤
(٣) زاد المسير:٢٢٥/٧
(٤) المصدر السابق:٢٢٥/٧
(٥) المحرر الوجيز:٥٦٢/٤، زاد المسير:٢١٩/٧
(٦) التحرير والتنوير:١٥٥/١١-١٥٦

وقوله " وأفوض أمري إلى الله " : وأسلم أمري إلى الله وأجعله إليه وأتوكل عليه؛ فإنه الكافي من توكل عليه[1]. وذلك أنهم تواعدوه لمخالفته دينهم [2].

قوله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ غافر: ٤٥. تفريع " فوقاه الله " مؤذن بأنهم أضمروا مكرا به. وتسمية مكرا مؤذن بأنهم لم يُشعروه به وأن الله تكفل بوقايته؛ لأنه فوَّض أمره إليه. وأحاط الله بفرعون وقومه فأغرقهم[3].

قال ابن كثير: وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم؛ فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ غافر: ٤٦ ، أي : أشده ألماً، وأعظمه نكالاً[4].

المطلب الثالث: لا جرم وأسرار تكرارها في القرآن الكريم.

تكرار "لا جرم" جاء في سورة النحل –كما سبق- في ثلاثة مواضع وسر ذلك:

لما كانت هذه السورة أكثر سور القرآن اهتماما بهذه المنافع وسرداً للنعم التي يتعيشون بمنافعها ويستدفئون بأصوافها ويسكنون تحت جلودها، واستقلت بنعم ليست في غيرها كنعمة النحل وإلهامها كيف تسكن وكيف تأكل ليكون ما في إخراجها خصوصية، وكذلك جمعت السورة قدرا من النعم لم تجمعه سورة أخرى ، كما أن الترغيب فيها أكثر من الترهيب لما فيها من نعم تجذب العقول وتلين القوب وتجبر على التوحيد لخالق النعم، كذلك التحذير من الشرك نعمة، وبيان مصائر المتقين نعمة وضرب الأمثال التي تبين الحق من الباطل نعمة وتعليم الوفاء بالعهد وعدم نقضه نعمة وكل نعمة لبست ثوب التحذير إنما هي نعمة تذكر، فلما لم يحدث بين كل تذكر ﴿ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ النحل: ٢٤ و﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾النحل: ٣٨ ، وأمنوا مكر الله ولم يعتبروا ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل: ٤٥ - ٤٧ ، وجعلوا له ما يكرهون

(١) جامع البيان: ٣٩٤/٢١
(٢) زاد المسير:٢٢٦/٧
(٣) المحرر الوجيز:٥٦٢/٤، زاد المسير:٢٢٦/٧، التحرير والتنوير:١٥٦/١١
(٤) تفسير القرآن العظيم:٩٩/٤

وكـــذبوا ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ النحل: ٦٢، كان لا بد أن يعقب هذا الاستكبار إذلال ويعقب العودة إلى الكفر بعد الإيمان إقحام في الخسران.

فلما لم تنفع النعم في الردع والتذكير والعظة والاعتبار ولم يثمر التذكير بما لحق أمثالهم من السابقين الجاحدين كان حتما أن تختم المصائر بما يقطع بخسران الباطل الذي اتبعوه وانتصار الحق الذي اتهموه ﴿ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ غافر: ٥ ، فكان سبب تكرار "لا جرم" في هذه السورة خاصة هو قوة وحدانية الواحد ولما لم يحدث اعتبار تردد هذا الأسلوب " لا جرم" ليقطع بمصيرهم حينا بعد آخر، وكانت قوة هذا القطع في المعنى الواحد؛ ولكنها تدرجت في ظاهر اللفظ، فجاءت "لا جرم" الأولى في السورة منوطة بعلم الله سرهم وعلنهم وبغضه للمســـتكبرين فقـــال ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٣ ، تعريضا بمن يزعمونهم آلهة وأنهم لا يعلمون شيئا فضلا عن أنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون، وهذه طوى فيها جانب العذاب؛ لأنها جاءت بعد فيض من النعم وبعد حديث بعد ذلك ما يضايق حامل الرسالة ومبلغ الوحي " لأنه بشر" وقالوا: " أساطير الأولين " وأنكروا البعث جاهدين في إقسامهم على ذلك، وخلطوا في تصرفاتهم وافتراءاتهم، وجزموا بأن لهم الحسنى، لما حدث كل هذا ازداد سياق "لا جرم" الثانية قوة في اللفظ ليروا ظاهر العذاب بعد أن لم يعتبروا به وقد طواه السياق في " لا جرم" الأولى، فقال ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ النحل: ٦٢ .

وعاد يُذكر بخصوصية الكتاب وما فيه من بيان ورحمة، ويُذكر بأخص خصائص النعم ويستنكر عليهم جحودها وكفرها، ولم يقلعوا عن الاتهام بالافتراء بل ضلوا بها فريقا دخل الإيمان تحت الترغيب في الدنيا أو الإكراه على الكفر فنقضوا العهد بعد أن جعلوا الله عليهم كفيلاً وشُرحت صدور فريق منهم بالكفر فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفي هذه المرحلة علا ظاهر العذاب حاكما بالطبع على القلوب والأسماع والأبصار، والتناهي في الغفلة مما أدى إلى الخسران الأعظم ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ النحل: ١٠٩ ، وهذا الامتداد يدل على عظمة الخسران وعلوه.

فكان السبب في تكرار "لا جرم" هنا هو تكرار النعم وتفصيلها مرة بعد أخرى، وكلما علا التفصيل علا الوعيد وازداد القطع بظهور العذاب.

وكذلك لما كانت للسورة خصوصيات في النعم كان خصوصيات في الوعيد، فلم تتكرر "لا جرم" في سورة أخرى سواها[1].

(١)مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد (٢٣)، أسلوب لا جرم:٩٨٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فقد يسر الله تعالى إتمام هذا البحث الذي حاولت فيه بيان معنى "لا جرم" واختلاف النحاة فيه، والسياق الذي ذكرت فيه ، كما ظهر من خلال هذا البحث بعض النتائج التي توصلت إليها، ومن أهمها:

- أن "لا جرم" تأتي في نهاية السياق كالخاتمة القطعية التي لا تحتمل غير هذه النتيجة.
- أن الملاحظ على هذه اللفظة –غالبا– إتيانها للفصل بين طرفين متخاصمين، يؤيد بها صاحب الحق، وهو ما كان جلياً في سورة هود بعد ذكر لفظة "لا جرم" أتبع ذلك بقوله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: ٢٤
- أن الاختلاف في معنى "لا جرم" وتركيبها، يتوافق مع المعاني المحتملة لتفسير الآية.
- أن المعنى الأقوى في لفظة "لا جرم" كونها بمعنى :حقاً، وهو قول الجمهور.
- أن "لا جرم" توكيد متضمن لمعنى القسم غير الصريح، وغالباً ما تُتبع بـ"أن" المفتوحة أو المكسورة.
- أن "لا جرم" تأتي في النظم والسياق المسترسل الذي تعرض فيه الحجج والبراهين الدامغة، ثم يؤتى بها كنتيجة وعاقبة لمن لم يرتدع ويرعوي ويقبل على الحق.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

المصادر والمراجع

١. أدب الكاتب، لابن قتيبة، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٣
٢. أرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، محمد العمادي، عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، مكتبة الرياض الحديثة
٣. أشعار الهذليين، تحقيق: أحمد الزين – محمود أبو الوفا ، دار الكتب المصرية ، ١٣٨٥
٤. الأصول في النحو، محمد بن سهل السراج، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨
٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، محمد عبد العزيز الخالدي، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ
٦. إعراب القرآن، أحمد بن جعفر النحاس، زهير غازي زاهد، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ
٧. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي، تحقيق: مصطفى السقا – حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، ١٩٩٦.
٨. آل حم الجاثية — الأحقاف دراسات في أسرار البيان، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ
٩. أمالي المرتضى، علي بن الحسين العلوي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ١٩٥٤ م
١٠. الأمالي في لغة العرب، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، صلاح بن فتحي — سيد الجليمي، المكتبة العصرية، ٢٠٠١
١١. إملاء ما من به الرحمن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، إبراهيم عطوه عوض، المكتبة العلمية– لاهور، باكستان، ١٤٠١هـ
١٢. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين عبد الله الأنصاري، يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر
١٣. البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف، صدقي محمد جميل ، المكتبة التجارية لمصطفى الباز، ١٤١٢هـ
١٤. البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير الدمشقي، علي محمد معوض ورفاقه، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ
١٥. البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ
١٦. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، محمد بن علي النجار، المكتبة العلمية، ١٤٠٢هـ
١٧. تاج العروس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية
١٨. التحرير والتنوير، محمد بن الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر — تونس، ١٩٨٤ هـ

١٩. التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، إحسان عباس – بكر عباس ، دار صادر ، ١٩٩٦
٢٠. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، موقع الشعراوي الإلكتروني
٢١. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي، مؤسسة الريان، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ
٢٢. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي – القاهرة
٢٣. التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ
٢٤. التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، بيروت، دمشق، ١٤١٨هـ
٢٥. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي ، عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي، المنشورات العلمية ، بيروت
٢٦. تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي، دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ
٢٧. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف ،القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥
٢٨. جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٢٩. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ
٣٠. الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، فخر الدين قباوه — محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ
٣١. حاشية الشهاب المسمى(عناية القاضي وكفاية الراضي)، أحمد بن محمد الخفاجي، عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ
٣٢. حاشية القونوي، إسماعيل بن محمد الحنفي، عبد الله بن محمود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٣٣. خزانة الأدب ونهاية الأرب، علي بن حجة الحموي، عصام شقيو، دار الهلال، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ
٣٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، أحمد محمد الخراط، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ
٣٥. درة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبد الله الأصفهاني الخطيب الأسكافي، محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٣٦. ديوان ابن هانئ الأندلسي، محمد بن هاني الأزدي الأندلسي، كرم البستاني ، دار بيروت ،١٤٠٠هـ
٣٧. ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس بن جندل، محمود بن إبراهيم الرضواني، إدارة البحوث والدراسات الثقافية في قطر، ١٤٣٠هـ
٣٨. ديوان الحماسة، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام ، أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٨ هـ
٣٩. ديوان بديع الزمان الهمذاني، يسري عبد الغني عبد الله ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤ هـ

٤٠. ديوان عروة بن الورد، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ
٤١. ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حمدو طماس، دار صادر، ١٤٢٢هـ
٤٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمد شكري الألوسي، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ
٤٣. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ
٤٤. الزاهر في معاني كلام الناس، محمد بن القاسم الأنباري، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ
٤٥. شرح الكافية الشافية، محمد بن عبد الله بن مالك، تحقيق : عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ١٤٢١
٤٦. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، على بن بلبان الفارسي، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ
٤٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ
٤٨. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ
٤٩. طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي، عبد السلام عبد المعين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
٥٠. الفائق في غريب الحديث، محمد بن عمر الزمخشري، علي بن محمد البجاوي– محمد بن إبراهيم، دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ
٥١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد علي الشوكاني، سيد إبراهيم، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ
٥٢. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مكتب تحقيق التراث مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ
٥٣. كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٦هـ
٥٤. كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، بيروت
٥٥. الكشاف، محمد بن عمر الزمخشري، محمد عبد السلام شاهين، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ
٥٦. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ
٥٧. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ
٥٨. مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة
٥٩. مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية العدد (٢٣)، أسلوب لا جرم ودلالته اللغوية، السيد محمد السيد سلام، ١٤٢٦هـ

٦٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية، عبد السلام عبد الشافي، الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ
٦١. مسند أبي يعلى، أحمد بن علي الموصلي، حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ
٦٢. مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ
٦٣. مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ
٦٤. المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ
٦٥. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، محمد النمر–عثمان جمعه–سليمان الحرش، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ
٦٦. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن سري الزجاج، عبد الجليل عبد شلبي، دار الحديث، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ
٦٧. معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء، أحمد نجاتي–محمد النجار، دار السرور
٦٨. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ
٦٩. مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشامية، دمشق ، بيروت، ١٤١٢ هـ
٧٠. المفصل في موضوعات سور القرآن، علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة الألكترونية
٧١. مقاييس اللغة، لابن فارس، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، الطبعة : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٧٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الألحاد والتعطيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ
٧٣. النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، السيد بن عبد المقصود، مؤسسة المكتبة الثقافية، الطبعة الثانية،١٤١٤هـ
٧٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، طاهر أحمد الزاوي–محمد الطناحي، دار الفكر، ١٤١٢هـ
٧٥. الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة من الرسائل العلمية، إشراف الشاهد البوشيخي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ
٧٦. وجمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٩٨٧م
٧٧. الوجوه والنظائر، الحسين بن محمد الدامغاني، فاطمة الخيمي، مكتبة الفارابي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ

٧٨. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك الثعالبي النيسابوري أبو منصور ، مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقدمة	١٥
المبحث الأول:اصطلاحات لا جرم في اللغة والقرآن	١٧
المطلب الأول: معنى لا جرم في اللغة	١٧
المطلب الثاني: الخلاف النحوي في لفظة لا جرم	١٨
المطلب الثالث: دلالة لا جرم على القسم	١٩
المطلب الرابع: اللغات الواردة في لا جرم	٢٤
المبحث الثاني: أسلوب القرآن في ورود لا جرم	٢٥
المطلب الأول: ورود الجرم وما من مادته	٢٥
المطلب الثاني:ورود لا جرم في القرآن الكريم	٢٥
الموضع الأول	٢٥
الموضع الثاني	٣٧
الموضع الثالث	٤٣
الموضع الرابع	٥٢
الموضع الخامس	٥٨
المطلب الثالث: لا جرم وأسرار تكرارها في القرآن الكريم	٦٦
الخاتمة	٦٩
المصادر والمراجع	٧٠
فهرس الموضوعات	٧٥